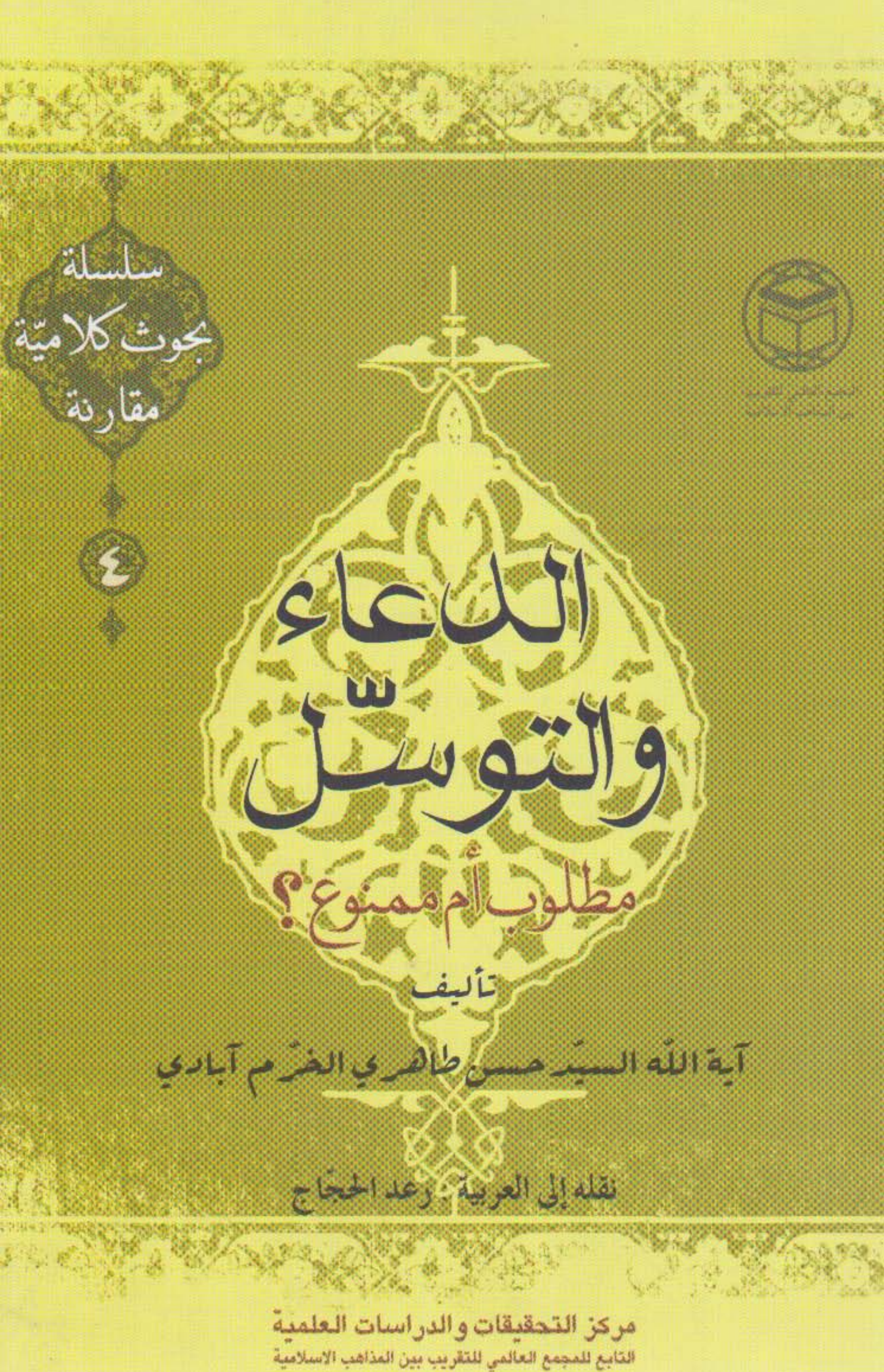

سلسلة
بحوث كلاميّة
مقارنة
٤
الدعاء والتوسّل
مطلوب أم ممنوع؟
تأليف
آية الله السيّد حسن طاهري الخرّم آبادي
نقله إلى العربية : رعد الحجّاج
مركز التحقيقات والدراسات العلمية
التابع للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية

سلسلة بحوث كلامية مقارنة (٤)

الدعاء والتوسّل بالأولياء
مطلوب أم ممنوع؟

بحث علمي يكشف عن مشروعية طلب الحاجة والتوسّل بالأنبياء والأولياء ويستقصي الروايات الواردة في مصادر الجميع

تأليف
آية الله السيّد حسن طاهري الخرّم آبادي

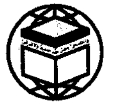
نقله إلى العربية
رعد الحجّاج

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾

غافر: ٦٠

سر شناسه	: طاهری خرم آبادی، حسن ، ۱۳۱۷ ــ ...
عنوان قراردادی	: دعا و توسل. عربي.
عنوان و نام پدیدآور	: الدعاء والتوسل بالأولياء مطلوب أم ممنوع؟ بحث علمي يكشف عن مشروعية طلب الحاجة و... /تأليف حسن طاهري الخرم آبادي / نقله الى العربية رعد الحجاج.
مشخصات ناشر	: طهران، المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية، المعاونية الثقافية، مركز التحقيقات والدراسات العلمية، ۱٤۲۹ ق = ۲۰۰۸ م =۱۳۸۷.
مشخصات ظاهری	: [۱۵۱] ص .
فروست	: سلسلة بحوث كلامية مقارنة: ٤ .
شابك	: ۹۷۸-۹٦٤-۱٦۷-۰۱۷-۹
وضعيت فهرست نويسى	: فيپا
يادداشت	: عربى.
يادداشت	: كتابنامه: ص. [۱٤۷] ــ ۱٤۸ ؛ همچنين به صورت زيرنويس.
موضوع	: دعا ــ فلسفه.
موضوع	: توسل.
موضوع	: توسل ــ احاديث.
شناسه افزوده	: حجاج ، رعد ، مترجم.
شناسه افزوده	: مجمع جهانى تقريب مذاهب اسلامى، معاونت فرهنگى، مركز مطالعات و تحقيقات علمى.
رده بندى كنگره	: ۱۳۸٦ ۷ د ۱۵ ط/ BP ۲٦٦/۷
رده بندى ديويى	: ۲۹۷ / ۷۷
شماره كتابشناسى ملى	: ۱۱۷۵۷۹۸



المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

* اسم الكتاب: الدعاء والتوسّل بالأولياء : مطلوب أم ممنوع ؟
* تأليف : السيد حسن طاهري الخرّم آبادي
* نقله الى العربية : رعد الحجّاج
* تقويم النص : شوقي شالباف
* تنضيد الحروف: عصام البدري
* تصميم الغلاف: محمد تقي مهجور
* الناشر: المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، المعاونية الثقافية، مركز التحقيقات والدراسات العلمية.
* الطبعة: الأولى ــ ۱٤۲۹ هــ ق / ۲۰۰۸ م
* الكمية : ۲۰۰۰ نسخة
* السعر : ۲۰۰۰۰ ريال
* المطبعة : نگار
* شابك: ۹۷۸-۹٦٤-۱٦۷-۰۱۷-۹
* العنوان: الجمهورية الإسلامية في ايران ــ طهران ــ ص . ب : ٦۹۹٥ ــ ۱٥۸۷٥
تلفكس : ۱٤ ــ ۸۸۳۲۱٤۱۱ ــ ۲۱ ــ ۰۰۹۸

مقدّمة المركز

لم تكن مسألة الدعاء والتوسّل بالغير من المواضيع الجديدة والطارئة على الإنسان، بل هي مسألة قديمة بِقِدم الإنسان على سطح هذا الكوكب الصغير وإن اختلفت صورها من أمة إلى أخرى، ومن إنسان إلى آخر.

فمنذ أن لامست قدما الإنسان الأرض وحاول تأمين غذائه ولباسه ومسكنه صار يهتمّ بهذه المسألة اهتماماً مستفيضاً، وأضحت من أبرز المظاهر التي كان يمارسها في حياته اليومية، مادام ثمة كوارث وتهديدات تعصف به، ومخاوف ومحن يفزع منها.

فإذا ما أحاطت به يوماً كوارث طبيعية مخوفة، أو حدث اقتتال طاحن لم يستطع دفعه، تراه يلوذ بكلّ ركنٍ يراه هو وثيقاً، من إنسان صالح أو شيء يعتقد بقدسيته، مستغيثاً به، لاجئاً إليه، فيطلب منه حاجته من السلامة والنجاة، غير مكترث ما يقوله عنه غيره.

وبهذا المنظار فمسألة الدعاء والتوسّل بالغير مركوزة في وجدان الإنسان وفطرته، خاصةً إذا كان الغير يمثّل إنساناً صالحاً وصدّيقاً خيّراً، فلم يواجه أيّ إنسان يوماً ـ وهو في خضم هذه التجربة ـ حرجاً إذا ما توسّل بهذا الإنسان الصالح وطلب منه الدعاء له، ولا

معارضةً لمنطق الإيمان والعقل إذا ما قام بذلك، ولا مخالفةً لما جرت عليه العادة عند الناس رغم اختلاف مستوياتهم الحضارية والعلمية. وهذه الظاهرة لم تكن تختصّ بها طائفة دون أخرىٰ، كما ولم تقتصر على أمة دون أخرىٰ.

ألم يستغث اليهود بموسىٰ عليه السلام، وإخوة يوسف عليه السلام بأبيهم يعقوب عليه السلام؟ ويتوسّل قوم يونس بالاطفال والرضّع إلى الله سبحانه ليرفع عنهم الهمّ والغمّ والعذاب؟

والإسلام لم ينكر مسألة الدعاء والتوسّل بالغير إذا كانت تقع على امتداد الدعاء والتوسّل بربّ العباد، بل وصادق عليها في جملةٍ من الآيات والتعاليم النبوية الشريفة، لكونها عاملاً مؤثّراً في تعزيز الصلة بالله تعالى من جهة، وتهذيب النفس والسلوك ممّا يعتريهما من أدران من جهة أخرىٰ.

فالدعاء والتوسّل إلى الله بأوليائه الذين أجاز التوسّل بهم يشكّل ـ في الحقيقة ـ عملية ارتقاء روحية تبعث في النفس القوة على الانتشال من ربقة الضياع واليأس إلى حيث الهداية والرشاد.

فالدعاء والتوسّل بالأنبياء والأولياء والصالحين من العباد، والصلاة والتنسّك، والبكاء والحزن والاستكانة التي يبديها الإنسان إلى الوليّ، إنّما يعني أنّه يسأله الدعاء وطلب الرحمة والمغفرة والعافية والشفاء و....، أي أنّ كلّ ما يقوم به من توسّل إنّما هو إبداء ذلك إلى الله سبحانه، فالتوسّل بالغير كما أراده تعالىٰ يعني التوسّل بالعزّة والجلالة نفسها، وليس هو شيئاً آخر مغايراً ومختلفاً عنه.

وقد جرىٰ اتّفاق غالب المسلمين علىٰ ذلك.

ولمّا أكرم الله سبحانه وحبا بعض أفراد البشر بكرامات وسمات، فما الضير في الذهاب إليه وسؤاله الدعاء بالمغفرة والرحمة، أو طلب الشفاء من المرض، طالما كان الاعتقاد راسخاً بكون هذا البعض ليس مستقلّاً في فعاله عن الله سبحانه، ولا يعدو كونه واسطة ليس إلّا؟

بيد أنّ ثمة من رفض هذا التفسير وأنكره، ودعا إلى التفصيل بين ما يقوم به المسلم من دعاء وتوسّل بربّ العزّة سبحانه والتوسّل بغيره من مخلوقاته!

كما واحتجّ على ما يمارسه المسلمون في شرق الأرض وغربها ـ فضلاً عن غيرهم ـ من أُمور يراها تدخل في مجال الطعن بالتوحيد الذي هو أصل من أصول الدين والشرع المقدّس.

وبذلك فهذا البعض قد شكّك في التصوّر تجاه هذه الممارسات التي درج عليها المسلمون وغيرهم، في شرق الأرض وغربها، بأدلّة لاتكاد تنهض بالمطلوب، وتوهّم أنّ التوسّل إلى الله بالأولياء والصالحين شرك!

إنّ هذه الرؤية الخاطئة لم تكن لتنشأ ولا تستفحل لولا وجود عاملين في البين:

الأول: الاستعمار وألاعيبه المكشوفة التي يريد بها كسر شوكة الإسلام والطعن في مصداقيّته لدىٰ الرأي العام الإسلامي، من خلال إثارة الشكّ في كلّ تعاليمه ومفاهيمه عند أتباعه، وهي غاية عدّها من أولويات مهامه على هذا الصعيد.

والثاني: خطأ المبنىٰ لدىٰ تصوّر هذا البعض وانحرافه عن جادّة الصواب، هذا ويضاف إليه بساطة بعض المسلمين وتصديقهم بكلّ ما يطرحه العدوّ المتخفّي بأقنعة شتّىٰ.

ولا يخفىٰ على الباحثين أنّ هذه المسألة قد لاقت عنايةً فائقةً من أطراف غربية عديدة، واهتماماً واسعاً من قبل دوائر الاستشراق لغرض تفعيلها بصورةٍ تخدم أهداف الغرب وطموحاته على صعيد مواجهة الشرق عامة، والعالم الإسلامي خاصة.

بيد أنّ مثل هذه المكائد لم تكد تظهر حتّىٰ فطن إليها علماء المسلمين رغم الجهود والأموال المبذولة في هذا السبيل، فنهضوا ردّاً ودفعاً لكلّ حملة دعائية أو شبهة مثارة، يراد من خلالها تكريس حالة الفُرقة والتباغض بين طوائف المسلمين، ليسهل القضاء عليها الواحدة تلو الأخرىٰ.

وما إثارة الشبهات، والتصعيد في الطعن والاقتتال بين الفئات والمجموعات المسلمة،حول مسائل عقائدية أو كلامية، إلّا محاولات تصبّ في هذا الاتجاه، مع علمهم أنّ أيّ مظهر يدعو إلى وحدة المسلمين واجتماع كلمتهم يعني أنّهم باتّجاه خطوة إلى الانـدحار والفشل.

وقد نهض علماء المسلمين: شيعة وسنّة، نحو هذه المسألة، تأليفاً وتدريساً وخطابةً... من أجل بيان الحقيقة، ودحض كلّ الشبهات والمزاعم بالكلمة العلمية والدليل القاطع، ومناقشة كلّ ما يثيره البعض المخالف من أوهام.

ومن أبرز هؤلاء آية الله السيد حسن طاهري الخرّم آبادي، الذي لم يألُ جهداً في التصدّي لهذا التصعيد المعادي، ويردّ سهام الاستعمار والصهيونية إلىٰ نحورهم.

وهذا الكتاب: «الدعاء والتوسّل بالأولياء، مطلوب أم ممنوع؟» الذي يحمل الرقم (٤) ضمن سلسلة بحوث كلامية مقارنة أزمع مركزنا العلمي التابع للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية أن ينشر نظمها ولآلئها بين الناس، من خلال تحقيق وطبع ونشر الكتب العقائدية التي من شأنها البحث عن الحقيقة والكشف عنها لغرض الهداية والرشاد، والدعوة إلىٰ الوحدة والتعاون بين أطراف المسلمين، ونبذ كلّ أشكال التباغض والاقتتال ونفي الآخر.

لقد وجد مركزنا أنّ المؤلّف لم ينهض لتأليف هذا السفر المختصر والمفيد إلّا في سبيل الدفاع عن رسالة الإسلام وتعاليمه السامية، وحماية عقائده من كلّ مَن يريد أن يلوّثها ويشكّك في مصاديق هذا الدين الحنيف.

فهو أحد علماء المسلمين الذين نصروا الاسلام بقوة، واهتمّوا بصيانته من كلّ اعتداء يقوم به أعداء الإسلام ضد العقيدة الإسلامية الصحيحة، مؤكّداً على أنّ هذه القضية إسلامية أكثر ممّا هي قضية شيعية، وإلهية أكثر ممّا هي إنسانية.

وهذا ما دعا مركزنا العلمي إلى الاهتمام بهذا السفر القيّم رغم صغر حجمه، وكان قد كتبه المؤلّف باللغة الفارسية، فتمّ ترجمته إلى العربية لينال حظّه من القرّاء العرب المسلمين، وتقويم نصّه بما يتلاءم

وذوق العصر الحديث.

وإذ نقدّر جهود المؤلّف المخلصة على هذا الصعيد، لا ننسىٰ أن نشكر الأخ المترجم الفاضل رعد الحجّاج على ما أبدىٰ من حسن تعاون في العمل، وأيضاً الأخ الفاضل شالباف الذي تحمّل عبء الإشراف على متابعة مراحل طبعه وتصحيح الإشكالات الفنية الواردة فيه مع النهوض بتقويم نصّه، وكذلك العاملين الذين بذلوا كلّ ما لديهم لإعلاء كلمة الوحدة والتوحيد عالياً، فجزاهم الله جزاء المحسنين.

هذا ونجدّد دعوتنا إلى كلّ المصلحين المخلصين في أن ينهضوا للدفاع عن ثقافتنا الأصيلة، وحماية كلّ ماله صلة في تعزيز الوحدة والتقارب بين طوائف المسلمين، ويطرحوا أجندتهم الثقافية والحضارية من أجل خير الأمة وسعادتها التي تكون بسعادة أبنائها جميعاً حيثما كانوا، وهو ما يأمله مجمعنا العالمي الأغرّ من جميع الطيّبين والمخلصين من علمائنا الأبرار وكتّابنا الأحرار في شرق الأرض وغربها... والله المستعان.

أحمد المبلّغي

مسؤول مركز التحقيقات والدراسات العلمية

التابع للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية

الفصل الأول

طلب الحوائج
من الأنبياء عليهم السلام والأولياء

طلب الحوائج من النبيﷺ أو الوليّ

من المسائل المطروحة علىٰ بساط البحث والتي تشكّل مثار جدل للبعض هي سؤال الحوائج من النبي ﷺ وأولياء الله تعالىٰ بعد موتهم والتوسّل بهم. وسنسلّط الضوء أولاً علىٰ سؤال الحاجات من الأحياء، ثم نتناول التوسّل بالأموات.

لاريب أنّه لو كنّا نعيش في عصر النبي ﷺ أو الأئمة عليهم السلام لكان بمقدورنا أن نتوسّل بهم ونطلب منهم قضاء حوائجنا بأحد أشكال ثلاثة:

(أ) قضاء حوائجنا الطبيعية والمتعارفة عن طريق المنح والعطايا.

(ب) الدعاء لنا عند الله تعالىٰ، وطلب خير الدنيا والآخرة، أو طلب تحقّق الحوائج الأخرىٰ.

(ج) القيام بعمل خارق للعادة من أجلنا؛ كشفاء مريض لنا من دون مراجعة الطبيب أو استعمال الدواء، أو إزالة بلاءٍ عظيمٍ عنّا بعد أن حلّ بنا، وما إلىٰ ذلك.

والشكل الأول لايمكن سؤاله من الأموات: إذ لايصحّ اللجوء إلى

الميت وسؤاله عن إنجاز العمل الفلاني لي، أمّا الشكلان الآخران فيجوز طلبهما من أرواح الأنبياء والأولياء المقرّبة إلى الله جلّ وعلا، بحيث نطلب منهم أن يشفعوا لنا عند الله، أو يتوسّطوا في شفاء مريضٍ ما، أو تذليل بعض العقبات التي تواجهنا، أو نسألهم أن يدعوا لنا بالخير والتوفيق.

ومن الطريف أن اعتبر البعض هذا النوع من السؤال شركاً وشنّوا عليه حرباً شعواء؛ رغم أنّهم لم يخالفوا الشكل الأول ووافقوا عليه.

كما أنّهم حسب الظاهر لم يعترضوا على الشكل الثاني أيضاً؛ ذلك أنّ الناس في عصر الرسالة كانوا يتشرّفون بلقائه، ويطلبون منه الدعاء لهم، إضافة إلىٰ أنّ بعض الآيات الشريفة تؤيّد هذا المعنىٰ.

كقوله تعالىٰ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾[1].

وقوله: ﴿...وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً﴾[2].

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾[3].

وقوله: ﴿قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ قَالَ سَوْفَ

---

١. التوبة: ١٠٣.

٢. النساء: ٦٤.

٣. المنافقون: ٥.

أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[١].

وقوله: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُواْ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾[٢].

ففي ضوء هذه الآيات، يتّضح أنّ هناك من كان يذهب إلى الأنبياء ويسألهم الدعاء وطلب الرحمة والمغفرة له، وهو ممّا جرت عليه العادة وألفه الناس منذ القدم فلا إشكال في طلب الناس من الأنبياء حال حياتهم الدعاء لهم في قضاء حوائجهم، ولا إشكال في ذلك أيضاً بعد مماتهم، بالنظر إلىٰ كون أرواحهم حيّة في عالم البرزخ.

أمّا فيما يخصّ القسم الأخير ـ طلب القيام بعمل خارق للعادة ـ فنقول: إنّ الله تعالى منح بعض أنبيائه وأوليائه مواصفات عالية، وحباهم بطاقات رهيبة يستطيعون من خلالها القيام بأعمال استثنائية لاتنسجم والعلل والأسباب الطبيعية المألوفة؛ وذلك نظير عصا النبي موسىٰ عليه السلام التي تحوّلت بعد إلقائها على الأرض إلىٰ ثعبان كبير.

إنّ لتحوّل العصا إلىٰ ثعبان عللاً وأسباباً أطلع الله عليها النبي موسىٰ عليه السلام ولم يطلع غيره عليها، تلك ـ إذن ـ معجزة، وهي تختلف عمّا يقوم به بعض المرتاضين من أعمال غير طبيعية.

فالمعجزة عمل يفوق التصوّر، ويدلّ علىٰ وجود عامل غير طبيعي

---

١. يوسف: ٩٧ ـ ٩٨.

٢. الأعراف: ١٣٤.

ومن خارج عالم المادة أدّىٰ إلىٰ حصولها، نحو صيرورة العصا ثعباناً، وهي من مختصّات النبي موسىٰ عليه السلام؛ إذ لا يستطيع غيره القيام بذلك مهما أُوتي من علم وقوة، إلّا إذا أعطاه الله العلل والأسباب اللازمة.

وكذا النبي عيسىٰ عليه السلام، إذ كان يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتىٰ بإذن الله، وعمله هذا عبارة عن معجزة يعجز غيره عن القيام بها، فقال فيه تعالى: ﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِىءُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ...﴾[1].

ولئن كان نبي الله عيسىٰ عليه السلام يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتىٰ، فإنّ ذلك كان يتمّ بإذنٍ من الله تعالىٰ، ولم يكن عيسىٰ مستقلاً في عمله، بل آتاه الله القوة للقيام به، ووفّر له الأسباب والعلل اللازمة.

كما نقرأ في القرآن الكريم عن المجيء بعرش بلقيس ملكة سبأ: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ...﴾[2].

ولمّا حبا الله جلّ جلاله بعض أفراد البشر بمثل هذه الكرامات، وخصّهم بهذا النوع من السمات، بحيث يقومون بما يفوق التصوّر

---

١. آل عمران: ٤٩.

٢. النمل: ٣٩ ـ ٤٠.

البشري، ويتجاوز مدياته؛ كأن يشفون المريض، أو يحيون الميت، فما الضير في الذهاب لهم والطلب منهم بأن يبرئ هذا المريض أو يشفي هذا العليل؟

علىٰ أنّ من يتوجّه إلى الطبيب أو الحكيم، أو يطلب من الأنبياء والائمة المعصومين حاجةً، يجب عليه أن يعلم بأنّ الحكيم أو الأنبياء والائمة ليسوا مستقلّين في شفاء المريض وإبراء العليل، بل إنّ الله تعالىٰ ـ في الحقيقة ـ منحهم هكذا قدرة، سواء علىٰ مستوى الأعمال الطبيعية، أو الأفعال الاستثنائية والمعجزات؛ فهم ليسوا الفاعل المستقلّ، بل لايعدو كونهم واسطة، ولو اعتبروا فاعلين علىٰ نحو الاستقلال فهذا هو الشرك، ونحن نعتقد بعدم صحة ذلك.

فتحصّل مما تقدّم أنّ الشيعة عندما يتوسّلون بالائمة لايعني أنّهم يعتقدون بأنّهم فاعلون علىٰ نحو الاستقلالية، بل هم واسطة بين الله وخلقه بما لهم من المنزلة الجليلة عند ربّهم.

وعندما كان الأنبياء والائمة المعصومون عليهم السلام علىٰ قيد الحياة فلا إشكال في التوسّل بهم لشفاء المرضىٰ وإبراء المعلولين؛ لكن الكلام يأتي بعد موتهم، فهل يجوز التوسّل بهم حينئذٍ أم لا؟

غاية ما يمكن قوله: عدم جواز التوسّل بالميّت، إلّا أنّه ليس شركاً.

الفصل الثاني

الفاعل الحقيقي هو الله

الفاعل الحقيقي هو الله

ذكرنا أنّ التوسّل بالأنبياء والصالحين يمكن أن يحصل بثلاثة أشكال: طلب قضاء الحوائج الطبيعية والمألوفة منهم حال حياتهم، وأن نطلب منهم الدعاء لنا. ولا اشكال في هذين الشكلين؛ لأنّه موافق لكلام الله سبحانه، وموائم لسيرة عامة المسلمين، حيث كان المؤمنون ـرجالاً ونساءًـ يتوافدون على النبي والائمة الأطهار عليهم السلام لطلب حوائجهم والدعاء منهم.

وأمّا الشكل الثالث: سؤالهم القيام بأعمال استثنائية ومغايرة للمألوف؛ كأن نسألهم إبراء الأكمه أو إبداء معجزةٍ ما. وقد ذكرنا أنّه لا مانع من القيام بهذا أيضاً؛ ذلك أنّ القرآن الكريم أعلن بصراحة أنّ الباري جلّ وعلا منح قسماً من الأنبياء والأولياء بعض المعاجز ليستثمروها في طريق تحقيق الأهداف الإلهية المقدسة.

وعليه، فلا ضير في أن يتوسّل الفرد المسلم بالنبي أو الائمة المعصومين في شفاء ولده المريض أو أخيه العليل أو إبراء الأكمه

منهم؛ لأنّ كافة هذه المعاجز والأُمور الخارقة للعادة منسوبة إلى الله تعالىٰ، وهو الفاعل الحقيقي لها.

إنّ وجود الأنبياء والائمة أنفسهم يرشح من وجود الذات الإلهية المقدّسة، بل الكون بأسره من آثار وأنفاس الحقّ تعالىٰ، لذا فإنّ طلبنا من الأنبياء والائمة والصالحين لشفاء مريضٍ لنا، فنحن ـ في الحقيقة ـ نطلب ذلك من الله تعالىٰ؛ ومن هنا فلو لم يكن التوسّل بشخصٍ في الأمور الطبيعية شركاً، فالتوسّل به في الأمور غير الطبيعية ـ الخارقة للعادة ـ ليس بشركٍ أيضاً.

لنطرح هذا السؤال: لمَ لايعتبرون القيام بأمور طبيعية كذهاب المريض إلى الطبيب للعلاج شركاً، في حين يقولون بشرك من يذهب من المرضىٰ إلى النبي أو الائمة طلباً للشفاء علىٰ أيديهم، فما هو الفارق بين الاثنين؟

فعندما نتوسّل بالأنبياء والائمة وندعوهم لقضاء حوائجنا، لانعتقد بكونهم الفاعل المستقل، بل نعدهم واسطة في الفيض الإلهي ونقول: ليس لدينا الأهلية واللياقة الكافية لنطلب من الله، بينما أنتم تمتلكون الوجاهة والمنزلة المرموقة عنده، فاطلبوا منه شفاء مريضنا. أين يكمن الإشكال في طلب قضاء الحاجة بالشكل المذكور؟

براهين المخالفين

الأول: إنّ ذهابنا إلىٰ جواز التوسّل بالآخرين لقضاء الحوائج الطبيعية والمألوفة إنّما هو لعدم كون هذا العمل إلهياً، إذ يستطيع أيّ

إنسان القيام بتلك المهمة. أمّا سؤال القيام بأعمال خارج حدود الطبيعة البشرية؛ كإظهار المعجزة أو إحياء الميت أو إبراء الأكمه، فأعمال إلهية لايتسنّىٰ لغيره أداؤها؛ وبناءً علىٰ ذلك، فالشرك هو طلب قضاء حوائج في خارج إطار طبيعة البشر، ممّن ليس بوسعه القيام بها. وبجملة واحدة: الحوائج التي لايتسنّىٰ قيام غير الله بها لايجوز طلبها من عبده، فذاك شرك.

يقول ابن تيمية: من يأتي إلىٰ قبر نبيٍّ أو صالحٍ يسأله حاجته ويستنجده، مثل أن يسأله أن يزيل مرضه أو يقضي دينه أو نحو ذلك ممّا لايقدر عليه إلّا الله عزّ وجلّ، فهذا شرك صحيح (صريح) يجب أن يستتاب صاحبه، فإن تاب وإلّا قُتل[1].

وقال أيضاً في رسالة زيارة القبور ما حاصله: مطلوب العبد إن كان ممّا لايقدر عليه إلّا الله، فسائله من المخلوق مشرك، من جنس عبّاد الملائكة والتماثيل، ومن اتّخذ المسيح وأُمه إلهين، مثل أن يقول لمخلوقٍ حيٍّ أو ميّت: اغفر ذنبي، أو انصرني علىٰ عدوّي، أو إشفِ مريضي، أو عافني أو عافِ أهلي أو دابتي، أو يطلب منه وفاء دينه من غير جهة معيّنة، أو غير ذلك. وإن كان ممّا يقدر عليه العبد فيجوز طلبه منه في حالٍ دون حال، فإنّ مسألة المخلوق قد تكون جائزة وقد تكون منهيّاً عنها... فهذه المنهيّ عنها، والجائزة طلب دعاء المؤمن لأخيه[2].

---

١. نقلاً عن كشف الارتياب: ٢٢٨.

٢. المصدر السابق: ٢٢٩.

والجواب عنه: أنّنا نتساءل: ما معيار كون الأعمال إلهية أو غير إلهية؟ هل الملاك والمعيار كون العمل مألوفاً وشائعاً أم هو متجسّد بعجز غير الله عن القيام بالفعل، فإذا كان الفاعل والمتوسّل به قادراً علىٰ أداء الفعل فالتوسّل به ليس بشركٍ، وإذا كان الفعل ممّا يعجز عنه غير الله تعالىٰ فهو شرك؟

يستفاد من كلام ابن تيمية أنّه يعتبر معيار الشرك والتوحيد قدرة وعجز غير الله عن القيام بالفعل.

والحقيقة أنّ كلّ ما ذكره لايعدّ معياراً وملاكاً للشرك؛ ذلك أنّ طلب أيّ واحدٍ منهما دليل على لغوية وعبثية نفس الطلب، فمثلاً عجز الفاعل عن أداء الفعل يؤدّي إلىٰ بطلان وعبثية طلبه، لا شرك الطالب والمتوسِّل. والشرك إنّما يحصل بالاعتقاد بأُلوهية الفاعل واستقلاليته في إنجاز الفعل، لابمجرد الطلب منه والتوسّل به.

وإذا كان مراد ابن تيمية أنّ طلب ما لايقدر عليه إلّا الله تعالىٰ من غيره بمثابة جعل شريك له؛ لإشراك غير الله بفعلٍ مختصٍّ به تعالىٰ، والطلب من غير الله بأداء فعل الله ملازم للاعتقاد بأُلوهية وربوبية غيره جلّ وعلا، وهذا هو الشرك. فالجواب عنه: أنّ طلب شفاء المريض وما شاكله يقع علىٰ نحوين: أحدهما: أنّ الطالب والمتوسّل يعتبر الفاعل مستقلّاً وغنياً عن غيره، سواء كان حيّاً أم ميّتاً. في الأمور المألوفة أم في غيرها، وهذا النوع من الطلب يستلزم الشرك؛ لأنّ القائم بالطلب توسّل باعتقاده بفاعلٍ مستقلٍّ سوى الله للتأثير في الكون وتدبير الأمور.

والنحو الآخر: هو أنّ المتوسِّل يعتقد أن المتوسَّل به يقوم بما طلب منه عن طريق العلل الطبيعية أو غير الطبيعية بقدرةٍ إلهيةٍ، وبإذنٍ وإرادةٍ منه تعالىٰ، وهذا النوع من الطلب ليس بشركٍ قطعاً، وهو نظير كلّ العلل والعوامل الطبيعية التي طالما نتوسّل بها.

إذن، المعيار والملاك الصحيح هو أنّ الموجود الذي يمثّل فاعلاً مستقلّاً في أعماله ولايحتاج فيها إلىٰ غيره يصحّ تسمية عمله بالعمل الإلهي، وأمّا الموجود الذي يحتاج في عمله إلىٰ قوة أخرىٰ ولايستطيع إنجازه بصورةٍ مستقلةٍ فعمله غير إلهي، سواء كان هذا العمل يسيراً أم عسيراً، معجزةً أم غير معجزةٍ، طبيعياً أم غير طبيعي، فبما أنّه غير مستقلّ فعمله غير إلهي، وأمّا الله فجميع أعماله إلهية؛ لأنّه مستقلّ وغني بالذات في أدائها. هذا هو المعيار في كون الأعمال إلهية أو غير إلهية.

وبناءً علىٰ هذا، لا فرق في سؤال الغير بين الأُمور الاعتيادية وغير الاعتيادية، فإن اعتبرت المسؤول والمستعان به والمتوسَّل به مستقلاً في الفاعلية وغنياً عن الله، فذاك هو الشرك في الخالقية أو في تدبير الأمور، أو بعبارة أخرىٰ: في فعل الله، وإن لم تعتبره كذلك بل اعتبرته مرتبطاً به، فسؤالك إياه ليس شركاً، بل هو عين التوحيد.

إنّ جميع الأعمال التي تقوم بها الموجودات في العالم من فواعل طبيعية أو غير طبيعية، وعللٍ اعتيادية أو غير اعتيادية، ومن إنسانٍ أو غير إنسانٍ، ومعجزةٍ أو غير معجزةٍ، جميعها أعمال غير إلهية؛ لعدم

وجود فاعلٍ مستقلٍّ وغنيٍّ بالذات وفاعلٍ بالذات في عالم الوجود غير الله تبارك وتعالى، وما يقوم به الله عمل إلهي وإن حصل عبر أسباب ووسائل.

وإذا ما طلب الإنسان من غير الله القيام بعملٍ، معتقداً أنّ ذلك الغير فاعل تامّ ومستقلّ، فهذا العمل إلهي ولكن سُئل من غير الله، وهو شرك، وإن سأله معتقداً بأنّ الله هو من منحه القوة والقدرة علىٰ إنجازه، فهو محتاج له وغير مستقلّ عنه، فلا يكون عمله في عداد الشرك، ولم يقم بسؤال عملٍ إلهي من غير الله سبحانه جلّ جلاله.

وقد ورد في القرآن الكريم موضوع طلب القيام بعملٍ غير اعتيادي من غير الله سبحانه، نحو قوله تعالىٰ:

١. ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي...﴾[١].

تبيّن هذه الآية بصراحة أنّ نبي الله سليمان عليه السلام قد طلب من الحاضرين في مجلسه القيام بعملٍ خارقٍ للعادة. ولايختلف هذا عن الموارد التي يسأل فيها الناس الأنبياء القيام بمعجزةٍ وعملٍ استثنائي فهي من هذا القبيل؛ أي: طلب أمرٍ لايقدر البشر الاعتيادي علىٰ فعله إلّا بإذن الله وإرادته.

---

١. النمل: ٣٨ ـ ٤٠.

وقد أشار القرآن الكريم إلىٰ بعض تلك الموارد من دون رفضها باعتبارها شركاً، أو نسبة الشرك إلىٰ طالبها، وذلك نحو قوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾[1].

حيث تكشف هذه الآية عن أنّ قوم موسىٰ استسقوا نبيّهم في عام جدب، وقد ورد نظير هذه القصة في سورة البقرة أيضاً[2].

٢. ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾[3].

وهذه الآية كذلك تعكس طلب أمرٍ غير اعتيادي.

وخلاصة البحث هي:

أولاً: أنّ الأنبياء والأولياء الربانيين قادرون على القيام بأفعالٍ خارقةٍ للعادة بما آتاهم الله من قوة وقدرة إلهية، وسؤالهم ليس سؤالاً عمّا لايقدرون عليه؛ لقدرتهم علىٰ أدائه بما يمتلكون من قوة إلهية، لكنّهم ليسوا قادرين عليه مع قطع النظر عن القدرة الإلهية.

ثانياً: أنّ سؤال الحوائج من الأنبياء والأولياء يرجع إلىٰ مطالبتهم بالتوسّل إلى الله تعالى، وشفاعتهم للسائل في شفاء المريض وقضاء حاجته.

---

١. الأعراف: ١٦٠.

٢. البقرة: ٦٠.

٣. البقرة: ٦١.

وبعبارة أخرىٰ: أولئك قادرون علىٰ شفاء المريض بما لديهم من قدرة علىٰ سببه أي بالتسبيب وايجاد السبب وهو الدعاء المقبول والشفاعة إلى الله، ولو طلبوا أداء نفس الفعل ففي الحقيقة قد طلبوا سببه، وهو الدعاء؛ وهو من باب إسناد الفعل إلىٰ غير ما هو له.

وبعبارة أدقّ: النبي أو الولي قادر علىٰ إيجاد سبب الفعل، وبالقدرة على السبب يقدر على المسبّب، فتارة يُطلب منه تحقيق السبب، وتارة المسبّب، وهو قادر علىٰ كليهما، وإذا ما طلبنا منه تحقيق المسبّب فذلك يرجع في الحقيقة إلىٰ طلب السبب، وهو دعاؤه للمريض.

وإذا طلب الشخص من الأنبياء أو الاولياء تحقيق نفس الفعل، كأن يقول: شافِ مريضنا، فذلك إمّا باعتبار القدرة التي منحها الله تعالى لذلك النبي أو الولي، وإمّا بمعنىٰ الدعاء والشفاعة، وهذا نظير الطلب من رسول الله ﷺ مرافقته في الجنّة بالقول: «أسألك مرافقتك في الجنّة» كما ورد في الدعاء.

إنّ هذا السؤال يرجع إلىٰ طلبنا منه الدعاء والشفاعة في هذا الأمر، وهو ما لايتحقّق إلّا بإذن الله وإرادته ذلك، وتوفيقه لمرافقة النبي الأكرم ﷺ، وهو نفس الأمر في طلب شفاء المريض.

ثالثاً: لايختصّ هذا الدليل بطلب قضاء الحاجة من الأولياء والأنبياء، ولا بما بعد موتهم، وكما يجب اعتبار الطلب من الأحياء ما لايقدر عليه إلّا الله شركاً؛ كذلك يجب عدّ سؤال الأنبياء حال حياتهم

عن شفاء المريض وإبراء الأكمه وإحياء الميت شركاً أيضاً!

* * *

البرهان الثاني: أنّ التوسّل إلى الأموات ومن لايسمع الكلام أمر عبثي، وموجب للشرك؛ إذ إنّ الأموات لايمتلكون القدرة على التكلّم ولا سماع كلام الأحياء، ولايملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً. فالموتىٰ ـ بشكل إجمالي ـ منقطعون عن الحياة الدنيا، ولايقدرون علىٰ أداء شيء ما.

قال محمد بن عبدالوهاب في هذا المضمار:... وهذا جائز في الدنيا والآخرة، وذلك أن تأتي لرجل صالح حيّ يجالسك ويسمع كلامك تقول له: إدعُ الله لي، كم كان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه في حياته، أمّا بعد موته فحاشا وكلّا أنّهم سألوا ذلك، بل أنكر السلف علىٰ من قصد دعاء الله عند قبره، فكيف بدعاء نفسه![1].

وقال في كتاب «فتح المجيد»: ومن أنواع الشرك طلب الحوائج من الموتىٰ، والاستغاثة بهم والتوجّه إليهم، وهذا أصل الشرك، فإنّ الميت قد انقطع عمله، وهو لايملك لنفسه ضرّاً ولا نفعاً[2].

وقال الرفاعي: إنّ التوسّل بدعاء النبي ﷺ بعد موته رهن أن يسمع الرسول أو يتكلّم، أو يصدر عنه أيّ عمل بعد موته، مع أنّه قد انقطع عمله نهائياً، كما هو قال: «***إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلّا من ثلاث:***

---

١. كشف الشبهات: ٢٨.

٢. عبدالرحمان النجدي، فتح المجيد في شرح كتاب التوحيد: ٥٧.

صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[١]، ولاشكّ أنّ رسول الله يشمله هذا الحديث.

وقال:... انقطعت علقة رسول الله ﷺ بهذا العالم، فهو لايسمع كلامنا، ولايقدر على التكلّم.

وقال أيضاً: إنّ بين الأحياء والأموات حاجزاً يمنع الاتّصال فيما بينهم قطعياً.

وللردّ علىٰ هذا الإشكال، لابدّ من الالتفات إلىٰ عدّة نقاط:

الأولىٰ: ذهب كافة المسلمين إلىٰ أنّ الموت ليس نهايةً للإنسان، ولايؤدّي إلىٰ فنائه، بل هناك حياة برزخية يمرّ بها قبل حلول القيامة. وقد أشارت بعض الآيات القرآنية إلىٰ إمكان إقامة ارتباطٍ مع الأموات وهم يمرّون بهذه الحياة، فقال تعالىٰ: **﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾**[٢].

فيلزم من سؤال الأنبياء والرسل السالفين إمكان الارتباط بهم.

كما وقد بعث الله سلامه إلى الأنبياء في عدّة موارد من القرآن الكريم، نحو:

أ ـ **﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾**[٣].

ب ـ **﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾**[٤].

---

١. نقلاً عن كشف الارتياب: ٢٤٦.

٢. الزخرف: ٤٥.

٣. الصافات: ٧٩.

٤. الصافات: ١٠٩.

ج ـ ﴿سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾[١].

د ـ ﴿سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ﴾[٢].

هـ ـ ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾[٣].

كما أنّ السلام علىٰ رسول الله ﷺ واجب في الصلاة، فنخاطبه قائلين: «السلام عليك أيّها النبي ورحمة الله وبركاته». وواضح أنّ السلام على النبي الأكرم ﷺ ليس من باب المجاملة وإنّما هو على الحقيقة، إذ لو كان ارتباطنا به قد انقطع، ولايصله سلامنا، لكان السلام عليه في الصلاة لغواً وعبثاً، وتعالى الله عن أن يأمر رسوله وعباده باللغو والعبث.

تحدّث النبي ﷺ مع قتلىٰ بدر

وأخرج أصحاب الحديث والتواريخ كصحيح البخاري وسيرة ابن هشام: أنّ النبي ﷺ وقف علىٰ قليب بدر، وخاطب الذين قُتلوا وأُلقيت أجسادهم في القليب:

«لقد كنتم جيران سوء لرسول الله ﷺ، أخرجتموه من منزله وطردتموه، ثم اجتمعتم عليه فحاربتموه، وقد وجدتُ ما وعدني ربّي حقّاً».

فقال له رجل: يارسول الله، ما خطابك لهامٍ صُديت؟!

---

١. الصافات: ١٢٠.

٢. الصافات: ١٣٠.

٣. الصافات: ١٨١.

فقال ﷺ: «*والله ما أنت بأسمع منهم*» وما بينهم وبين أن تأخذهم الملائكة بمقامع من حديد إلّا أن أعرض بوجهه هكذا عنهم[١].

وروىٰ ابن هشام في سيرته عن أنس بن مالك قال: سمع أصحاب رسول الله ﷺ كلام رسول الله ﷺ من جوف الليل وهو يقول:

«***ياأهل القليب، وياعتبة بن ربيعة، وياشيبة بن ربيعة، وياأُمية بن خلف، وياأبا جهل بن هشام*** ـفعدّد من كان منهم في القليبـ ***هل وجدتم ما وعدكم ربّكم حقّاً؟...***».

فقال المسلمون: يارسول الله، تنادي قوماً قد جيّفوا؟

قال: «***ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنّهم لايستطيعون أن يجيبوني***»[٢].

النقطة الثانية: أنّ المخالفين أنفسهم قد اعترفوا بحياة رسول الله ﷺ بعد موته، فجاء في الرسالة الثالثة من الرسائل السنيّة ما يلي: ونعتقد أنّه ﷺ حيّ في قبره حياةً برزخيةً أبلغ من حياة الشهداء المنصوص عليها في التنزيل، إذ هو أفضل منهم بلا ريب، وأنّه يسمع سلام المسلم عليه[٣].

وفي موضوع زيارة النبي ﷺ والسلام عليه، وردّه ﷺ السلام روايات كثيرة، فقد أخرج أبو داود في سننه عنه ﷺ أنّه قال:

---

١. سيرة ابن هشام ٢: ٢٩٢، صحيح البخاري ٥: ٩٨ (مع تفاوت يسير).

٢. سيرة ابن هشام ٢: ٢٩٢، سيرة الحلبي ٢: ١٧٩.

٣. نقلاً عن كشف الارتياب: ١١٠ (طبعة دمشق).

«ما من أحد يسلّم عليَّ إلّا ردّ الله عليَّ روحي حتّىٰ أردّ عليه السلام»[١]. وعقّب عليه العظيم آبادي قائلاً: هاهنا يقدّر الكلام، أي: ما من أحد يسلّم عليَّ إلّا أردّ عليه السلام؛ لأنّي حيّ أقدر على ردّ السلام.[٢]

وورد في بعض الروايات أيضاً:

«إنّ الله تعالىٰ وكّل بقبره ملائكة يبلّغونه عن أمته السلام»[٣].

وأخرج السمهودي روايات متعدّدة في هذا المجال عن رسول الله ﷺ، وصرّح بصحّة إسناد غالبيتها قائلاً: روىٰ أبو داود بسندٍ صحيح: أنّ رسول الله ﷺ قال: *«ما من أحدٍ يسلّم عليَّ إلّا ردّ الله عليَّ روحي حتّىٰ أردّ عليه السلام»*. وقد صدّر به البيهقي باب زيارة قبر النبي ﷺ، واعتمد عليه جماعة من الائمة فيها، منهم الإمام أحمد... وروى النسائي وإسماعيل القاضي بسندٍ صحيحٍ عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً:

«إنّ لله ملائكة سيّاحين في الأرض يبلغوني من أُمتي السلام»[٤].

وقال أيضاً: روىٰ جماعة عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال:

«من صلّىٰ عليَّ عند قبري سمعته، ومن صلّىٰ عليَّ نائياً بُلِّغْتُه».

وروي عنه أيضاً أنّ رسول الله ﷺ قال:

«علمي بعد وفاتي كعلمي في حياتي»[٥].

---

١. سنن أبي داود ٢: ٢١٨، كتاب المناسك، سنن البيهقي ٥: ٢٤٥.

٢. عون المعبود شرح سنن أبي داود ٦: ١٩.

٣. سبل الهدىٰ والرشاد ٣: ١٣٣.

٤. وفاء الوفا ٤: ١٣٤٩ ـ ١٣٥٠.

٥. وفاء الوفا ٤: ١٣٥٢.

وقال أيضاً: لاشكّ في حياته بعد وفاته، وكذا سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أحياء في قبورهم حياةً أكمل من حياة الشهداء التي أخبر الله تعالىٰ بها في كتابه العزيز، ونبيّنا ﷺ سيّد الشهداء[1].

ثم نقل روايات أُخرىٰ بسندٍ صحيح أو موثّق عن البيهقي وابن ماجة والسيوطي والحافظ أبي نعيم الأصفهاني حول حياة الأنبياء بعد موتهم، وأخرج روايةً صحيحة السند عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ:

«ما من أحد يمرّ بقبر أخيه المؤمن كان عرفه، فيسلّم عليه، إلّا عرفه وردّ عليه السلام»[2].

ونقل عن عائشة قولها:

ما من رجلٍ يزور قبر أخيه، فيجلس عنده، إلّا استأنس به حتّىٰ يقوم[3].

ثم قال: الروايات كثيرة في هذا المجال[4].

وروىٰ عن السبكي أنّه قال: ***وسيأتي ما يدلّ علىٰ أنّه ﷺ يسمع من يسلّم عليه عند قبره، ويردّ عليه، عالماً بحضوره عند قبره***[5].

---

١. وفاء الوفا ٤: ١٣٥٢.

٢. المصدر السابق: ١٣٥١.

٣. المصدر نفسه: ١٣٥١.

٤. المصدر نفسه.

٥. المصدر نفسه: ١٣٥٢.

ثم رویٰ عن البيهقي أنّه قال: ***ولحياة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم بعد موتهم شواهد من الأحاديث الصحيحة***[1].

ثم ذكر السمهودي جملةً من الأحاديث الدالّة علىٰ لقاء نبينا ﷺ بالأنبياء السابقين، ثم قال: ***وهذا إنّما يصحّ على أنّ الله عزّ وجلّ يردّ على الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أرواحهم، فهم أحياء عند ربّهم كالشهداء***[2].

ثم نقل روايةً عنه ﷺ أنّه قال:

«أفضل أيامكم يوم الجمعة... فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه، فإنّ صلاتكم معروضة عليَّ».

ثم قال: رویٰ ابن ماجة بإسناد جيد ـ كما قال المنذري ـ عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ:

«أكثروا الصلاة عليَّ يوم الجمعة، فإنّه مشهود، تشهده الملائكة، وإن أحد يصلّي عليَّ إلّا عُرضت عليَّ صلاته حين يفرغ منها».

قال: قلت: وبعد الموت؟ قال:

«وبعد الموت، إنّ الله حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام».

فنبي الله ﷺ حيّ يرزق. هذا لفظ ابن ماجة[3].

---

١. وفاء الوفا: ١٣٥٢.

٢. المصدر السابق: ١٣٥٣.

٣. المصدر نفسه.

وقال السمهودي أيضاً: وقال رسول الله ﷺ:

«حياتي خير لكم تُحدِثون ويحدث لكم، ووفاتي خير لكم، تعرض عليَّ أعمالكم، فما رأيت من خيرٍ حمدت الله عليه، وما رأيت من شرٍّ استغفرت الله لكم»[1].

ثم روىٰ عن أستاذه أبي منصور البغدادي أنّه قال: قال المتكلّمون المحقّقون من أصحابنا: ***إنّ نبينا محمداً ﷺ حيّ بعد وفاته، يُسَرُّ بطاعات أُمته، وإنّ الأنبياء صلوات الله عليهم لا يبلون***[2].

وقال البيهقي: ***ألّفنا كتاباً خاصّاً في إثبات حياة الأنبياء بعد وفاتهم***. وقد حوىٰ كتاب (وفاء الوفا) شواهد كثيرة من روايات وأقوال في هذا المجال.

والمقصود من نقل هذه الموارد إثبات إمكان ارتباط النبي ﷺ بهذا العالم، واطّلاعه علىٰ زيارة المسلمين له، وتبليغه بسلامهم.

وقد مرّ معنا في الرواية الصحيحة عن ابن عباس أنّه: ***ما من أحد يمرّ بقبر أخيه المؤمن كان عرفه، فيسلّم عليه، إلّا عرفه وردّ عليه السلام***. فما بالك بالأنبياء صلوات الله عليهم؟

وقال ابن حجر العسقلاني في هذا الصدد: عن ابن عباس رضي الله عنه قال: مرّ رسول الله ﷺ بقبور المدينة، فأقبل عليهم بوجهه، فقال:

«السلام عليكم يا أهل القبور، يغفر الله لنا ولكم، أنتم سلفنا ونحن بالأثر».

---

١. وفاء الوفا: ١٣٥٣.

٢. المصدر السابق: ١٣٥٤.

رواه الترمذي وقال: حسن. فيه: أنّه يسلّم عليهم إذا مرّ بالمقبرة وإن لم يقصد الزيارة لهم، وفيه: أنّهم يعلمون بالمارّ بهم وسلامه عليهم، وإلّا كان إضاعةً، وظاهره في جمعةٍ وغيرها... وهذا دليل علىٰ أنّ الإنسان إذا دعا لأحدٍ أو استغفر له يبدأ بالدعاء لنفسه والاستغفار لها، وعليه وردت الأدعية القرآنية: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا﴾ [و] ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وغير ذلك، وفيه: أنّ هذه الأدعية ونحوها نافعة للميّت بلا خلاف[1].

وقال ابن عابدين: ***وتزار [القبور] في كلّ أسبوع كما في مختارات النوازل، قال في شرح لباب المناسك: إلّا أنّ الأفضل يوم الجمعة والسبت والاثنين والخميس، فقد قال محمد بن واسع: الموتىٰ يعلمون بزوّارهم يوم الجمعة، ويوماً قبله ويوماً بعده، فتحصّل أنّ يوم الجمعة أفضل***[2].

وقال الملّا علي القاري في شرح اللباب: ***ثم من آداب الزيارة ما قالوا من أنّه يأتي الزائر من قبل رجلَي المتوفّىٰ، لا من قبل رأسه؛ لأنّه أتعب لبصر الميّت، بخلاف الأول؛ لأنّه يكون مقابل بصره، لكن هذا إذا أمكنه***[3].

النقطة الثالثة: إنّ كلا الدليلين المذكورين في كتاب «فتح المجيد»

---

١. سبل السلام ٢: ٥٨٦.

٢. ردّ المحتار على الدرّ المختار ١: ٦٠٤.

٣. المصدر السابق: ٦٠٤ ـ ٦٠٥.

لاينهضان علىٰ إثبات المدّعىٰ من كون طلب الحوائج من الأموات والاستغاثة بهم شركاً. أمّا الدليل الأول القائل بانقطاع الميت عن عالم الدنيا بصورة عامة، فعلىٰ فرض صحّته يثبت عبثية طلب الحوائج من الأموات، لاشرك الطالب لها.

وأمّا الدليل الثاني القائل: إنّ الميّت لايملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً، فهو لايقتصر على الميّت فقط، علىٰ معنىً أنّه لايملك أيّ مخلوق ـ من إنسان وغيره ـ نفعاً ولا ضرّاً لنفسه وغيره؛ لأنّ إيصال النفع أو الضرر في صفحة الوجود، للحي أو الميّت، للإنسان وغيره، لايحصل إلّا بإذن الله وإرادته، فالله سبحانه هو المالك الواقعي للنفع والضرر، ولا مؤثّر في الوجود إلّا هو.

وعلىٰ معنىً آخر فبإمكان المخلوق أن يكون مؤثّراً في الوجود، ويمتلك النفع والضرّ، سواء كان حيّاً أم ميّتاً، بإذن الله وإرادته. وعليه فبمقدور الإنسان بعد موته، بما لديه من حياة برزخية، أن يكون ضارّاً أو نافعاً بإذن الله وإرادته.

وعلىٰ فرض صحّة المدّعىٰ، فلا يثبت هذا الدليل سوىٰ عبثية طلب الحوائج من الأموات، ولايثبت شرك السائل قطّ.

إذن، فعلىٰ أساس أنّ الموت ليس نهاية الحياة، ولايؤدّي بالإنسان إلى الفناء، بل هو نافذة للانتقال إلىٰ حياة أخرىٰ وعالم آخر، وأنّ حقيقة الإنسان تتجسّد بنفسه وروحه، لابجسمه وبدنه، وبما أنّ روح الإنسان باقية ومستمرة، فالإنسان أيضاً أبدي وخالد، يمكننا أن نقول:

إذا ما استطاع الإنسان القيام بعملٍ يفوق الطبيعة البشرية في هذا العالم بإذنٍ من الباري جلّ وعلا، فبإمكانه القيام بنفس العمل في عالم البرزخ بإذنٍ منه تعالىٰ، كأن يدعو الله لشفاء المرضىٰ أو قضاء سائر حوائجهم.

النقطة الرابعة: ولردّ الشبهة التي طرحها الرفاعي، مستدلاً بحديث رسول الله ﷺ، نقول:

أولاً: تقدّمت بعض الروايات آنفاً التي تفيد أنّ رسول الله ﷺ يسمع الكلام ويردّ السلام بعد موته. وهناك عدد كبير آخر من الروايات تؤكّد هذا المعنىٰ، نذكر بعضها:

(أ) أخرج النسائي عن النبي ﷺ أنّه قال:

«إنّ لله ملائكةً سيّاحين في الأرض، يبلغوني من أمتي السلام»[1].

(ب) وأخرج أبو داود عن النبي ﷺ أنّه قال:

«ما من أحدٍ يسلّم عليّ إلّا ردّ الله عليّ روحي حتّىٰ أردّ عليه السلام»[2].

وأخرج البيهقي هذا الحديث أيضاً عن أبي هريرة[3].

(ج) أخرج النسائي عن عبدالله بن عمر عن رسول الله ﷺ قال:

«من صلّىٰ عليّ صلاةً صلّىٰ الله عليه عشراً...»[4].

---

١. سنن النسائي ٣: ٤٣.

٢. سنن أبي داود ٢: ٢١٨، كتاب المناسك.

٣. سنن البيهقي ٥: ٢٤٥، كتاب الحج.

٤. سنن النسائي ٢: ٢٥.

(د) وقال في فضل التسليم على النبي ﷺ في حديثٍ:

«لايصلّي عليك أحد إلّا صلّيت عليه عشراً، ولايسلّم عليك أحد إلّا...» [1].

(هـ) وأخرج النسائي أيضاً عنه ﷺ أنّه قال:

«من زارني بعد وفاتي، وسلّم عليّ، رددت عليه السلام عشراً، وزاره عشرة من الملائكة، كلّهم يسلّمون عليه، ومن سلّم عليّ في بيته ردّ الله تعالىٰ عليّ روحي حتّىٰ أسلّم عليه» [2].

وعلىٰ ضوء هذه الروايات، وغيرها ممّا جاء في هذا الباب، فإنّ رسول الله ﷺ يسمع كلامنا، ويردّ سلامنا؛ لذا يجب ـ عندنا ـ التسليم عليه بعد التشهّد في الصلاة، ويستحبّ ذلك علىٰ رأي بعض فقهاء المسلمين، ولازم ذلك سماع الرسول ﷺ لسلام المسلِّم عليه، وعليه يتنافىٰ وما ذكره الرفاعي بقوله: «قد انقطع عمله نهائياً، فهو لايسمع كلامنا ولايقدر على التكلّم» مع وجود هذه الأحاديث الواردة في الكتب المعتبرة لأهل السنّة.

ثانياً: الحديث الذي رواه عن رسول الله ﷺ ليس في مقام بيان قطع علقة الإنسان بعالم الآخرة بشكلٍ كامل، بل في مقام بيان انقطاع الإنسان عن الأعمال التي يترتّب عليها الثواب؛ أي: ليس للإنسان

---

١. سنن النسائي ٣: ٤٤.

٢. المصدر السابق: ٥٠ (قريب من هذا المضمون).

عمل يتأتّىٰ منه الثواب بعد موته، فينقطع ثواب أعماله إلّا من ثلاث، إذ نسب «الانقطاع» في الحديث إلى «العمل» لا إلى «الإنسان» فقال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله» والقرينة علىٰ ذلك كون مفاد الحديث دالّاً علىٰ استثناء الموارد التي يترتّب عليها الثواب دائماً.

إذن فما يريد قوله في هذا الحديث هو أنّ الإنسان إذا مات انقطعت تلك الأعمال التي يترتّب عليها الثواب، باستثناء الموارد الثلاثة المذكورة، حيث يستمرّ ثوابها بفعل استمرار نفس الأعمال.

ثالثاً: قال تعالىٰ في محكم كتابه المبين في الشهداء:

﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

تؤكّد هذه الآية علىٰ أنّ الشهداء في سبيل الله أحياء يُرزقون، فرحين مستبشرين بنعم الله تعالىٰ، بما يحصلون على الأجر والثواب؛ كما أنّهم مستبشرين بمن لم يلحق بهم. إذن أرواح الشهداء غير منقطعة عن هذا العالم، بل تنتظر من لم يلحق بها، وتستبشر بهم، وتبدي اهتمامها بالتحاقهم بها.

وانطلاقاً من ذلك، فلايمكن الموافقة علىٰ من يذهب إلىٰ انقطاع كافة الأفراد عن هذا العالم بشكل كامل بعد الموت؛ لوجود ارتباط

---

١. آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧٠.

وإدراك وتكلّم من ناحية بعض الأرواح كالشهداء والرسول ﷺ وأولياء الله عليهم السلام من هذا القبيل.

وأمّا فيما يتعلّق بالشبهة الثانية حيث قال: «إنّ بين الأحياء والأموات حاجزاً يمنع الاتّصال فيما بينهم قطعياً» فالجواب عنها قد اتضح فيما تقدّم من الروايات والآيات، اذن لايمكن قبول هذا الكلام بصورة عامة، وإرساله إرسال المسلّمات.

النقطة الخامسة: أنّ الاعتقاد بأنّ النبي ﷺ والأولياء عليهم السلام بعد موتهم، والشهداء أيضاً، هل يسمعون كلامنا أو لايسمعونه، لايندرج ضمن الواجبات الاعتقادية، لا نفياً ولا إثباتاً، فمن يعتقد أنّهم يسمعون الكلام، فإمّا أن يكون مصيباً أو مخطئاً في اعتقاده، وعلى كلا التقديرين لن يخرجه مثل هذا الاعتقاد عن ربقة الاسلام، ولايدخله دائرة الكفر والشرك، وفي حالة عدم سماعهم كلام المتوسّل بهم فهو من قبيل طلب قراءة الكتاب من الأعمىٰ ظنّاً من الطالب أنّه بصير، أو دعوة الميّت لقضاء حاجةٍ ما ظنّاً منه أنّه نائم.

* * *

البرهان الثالث: استدلّ البعض علىٰ شرك القائم بالدعاء والاستغاثة عند قبور الأنبياء والأولياء بعددٍ من الآيات الكريمة النازلة في دعاء المشركين للأصنام والتوسّل بهم نحو:

أ ـ قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾[١].

---

١. الجن: ١٨.

ب ـ وقال: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ﴾[1].

ج ـ وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾[2].

د ـ وقال: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾[3].

هـ ـ وقال: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾[4].

و ـ وقال: ﴿قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً﴾[5].

ز ـ وقال: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾[6].

ح ـ وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ﴾[7].

فقد نهت الآيات المذكورة عن أيّ لونٍ من ألوان دعوة غير الله تعالىٰ، فسؤال غيره لقضاء الحاجة من مصاديق هذه الآيات النازلة في المشركين، والذامّة لمثل هذا الفعل. والجواب عن هذا الدليل بما يلي:

---

١. الرعد: ١٤.

٢. الأعراف: ١٩٤.

٣. فاطر: ١٣.

٤. فاطر: ١٤.

٥. الإسراء: ٥٦.

٦. يونس: ١٠٦.

٧. الأحقاف: ٥.

أولاً: أنّ هذه الآيات نزلت في المشركين المعتقدين بأُلوهية وربوبية الأصنام والأشياء، الذاهبين إلىٰ أنّها المديرة والمدّبرة للكون، القائلين بأنّ الله تعالىٰ قد فوّض جميع الأمور والأفعال إليها، وأنّ لها مطلق التأثير والاستقلال في هذا العالم، مع التفاوت الموجود في عقائدهم؛ ففريق منهم كان يعبد الأرواح، وآخر يعبد الملائكة، وثالث يعبد الأصنام... ولاتمت هذه الآيات بصلة ـ من قريب أو بعيد ـ إلىٰ عمل المسلمين؛ ذلك أنّهم لايعتقدون بأُلوهية الأنبياء والأولياء، بل يعتبرونهم عباد الله المخلَصين، وإذا ما طلبوا منهم قضاء حاجةٍ فإنّما يطلبون الدعاء والشفاعة الذي يرجع ـ في الحقيقة ـ إلى الطلب من الله سبحانه، ولا أحد من المسلمين يذهب إلىٰ استقلالهم إزاء الله، فهذه مقارنة غير صحيحة، وبعيدة غاية البعد عن الإنصاف.

ثانياً: ليس المراد من الدعاء في هذه الآيات صرف النداء، بل هو دعاء خاصّ بمعنىٰ العبادة؛ أي أنّ النهي والتحريم في هذه الآيات ليس موجّهاً نحو طلب الحوائج من غير الله، بل المراد تحريم عبادة غير الله سبحانه، بدليل صدر بعض تلك الآيات، نحو: قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾. وقوله: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[1].

---

١. غافر: ٦٠.

فقد استعمل في بداية الآية لفظ «الدعوة» وجاء في آخرها لفظ «العبادة» ممّا يدلّل علىٰ أنّ المقصود من الدعوة إنّما هو العبادة، لامطلق الدعوة وسؤال غير الله، وإلّا لزم حرمة كلّ نوع من أنواع دعوة غير الله سبحانه.

ولايخفىٰ على الباحث أنّ «الدعاء» في اللغة يعني الدعوة والمناداة، ويطلق أيضاً على التضرّع إلى الله وطلب الحاجات منه والتوسّل إليه باعتقاد أنّه مالك الدنيا والآخرة.

وبرغم أنّه وضع للمعنى الأول، إلّا أنّه غالباً ما يستعمل بالمعنى الثاني، وهو دعوة الله والتضرّع إليه بحالةٍ من الخضوع والمسكنة، باعتقاد عدم وجود مؤثّر في الكون سواه، وإطلاق «الدعاء» على المعنى الأخير يتمّ إمّا باعتباره أحد مصاديق المعنىٰ اللغوي، وإمّا أنّه المعنى العرفي الحقيقي للدعاء، وقد استعملت كلمة «الدعاء» في هذا المعنىٰ.

وينطوي المعنى الثاني لهذا اللفظ علىٰ أركان ثلاثة:

الأول: دعوة من يعتقد الداعي بأُلوهيّته، وكونه المدبِّر للعالم كلّه أو لجزءٍ منه، أو المؤثّر فيه، كما هي عقيدة المشركين في الأصنام والأوثان، إذ يعتقدون أنّها آلهة للخير والشر، والرزق والنماء، والبرّ والبحر...

الثاني: دعوته بخضوعٍ وذلٍّ، وسؤاله قضاء الحوائج.

الثالث: اعتبار نفسه عبداً، والإله مالكاً له.

ومع المحافظة علىٰ هذه الأركان يكون الدعاء أحد مصاديق العبادة؛ لأنّ الخصوصيات المعتبرة في العبادة قد لوحظت في هذا النوع من الدعوة، وهي منتهىٰ التذلّل والخضوع مقابل من يعتقد بأُلوهيّته، بالإضافة إلىٰ إظهار عبوديته. إذن، ليست كلّ دعوة عبادة، فلا تعتبر الدعوة عبادة إلّا إذا اشتملت علىٰ خصوصيات العبادة.

وروي: أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: «*الدعاء مخّ العبادة*»[1].

وقال في رواية أخرىٰ: «*الدعاء هو العبادة*»[2].

وقال الإمام زين العابدين عليه السلام في الصحيفة السجادية:

«***فسمّيت دعاءك عبادة، وتركه استكباراً، وتوعّدت علىٰ تركه دخول جهنّم داخرين***»[3].

إنّ الدعاء متضمّن لهذا المعنىٰ طبق عرف المسلمين، بل كافّة أتباع الأديان السماوية، بل حتّىٰ المشركين أنفسهم؛ لذا فإنّ دعاء غير الله المنهيّ عنه في تلك الآيات هو الدعاء المقترن بالخضوع والعبودية مع الاعتقاد بأُلوهية المدعوّ، أي أنّ قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾ يعني: لاتعبدوا مع الله أحداً.

وثمة ملاحظة أخرىٰ تختصّ بها هذه الآية، وهي أنّ عبارة: «مع

---

١. سنن الترمذي ٥: ٤٥٦، نقلاً عن كشف الارتياب: ٢٣٣.

٢. مسند أحمد ٤: ٢٦٧، سنن أبي داود ٢: ٧٧، سنن الترمذي ٥: ٤٥٦، نقلاً عن كشف الارتياب: ٢٣٣.

٣. الصحيفة السجادية، الدعاء ٤٥، المقطع ١٥؛ وهو إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ غافر/٦٠.

الله» لاتصدق إلّا إذا كان دعاء غير الله مماثلاً لدعاء الله، أي يتساوىٰ دعاء غير الله مع دعاء الله، وواضح أنّ دعاء الله يعني عبادته، فينبغي أن يكون دعاء غير الله مساوقاً لعبادة ذلك الغير لتصدق المعيّة حينئذٍ، فلو دعا من كان في المسجد متعبّداً متبتّلاً غيره قائلاً: ناولني كأس ماءٍ مثلاً، فلن يكون مصداقاً لهذه الآية قطعاً، ولايشمله النهي الوارد فيها على الرغم من حصول الدعاء والنداء.

والنتيجة: أنّ طلب الحوائج من النبي ﷺ وأولياء الله عليهم السلام كطلب الماء أو غيره من الفرد الحيّ ليس بعبادة، وغير مشمول لهذه الآية ولا لباقي الآيات المذكورة؛ لأنّ طلب الحوائج منهم لايعدو عن كونه طلباً للدعاء والشفاعة لدىٰ الباري تعالىٰ.

البرهان الرابع: ومن جملة ما استُدلّ به علىٰ إشراك من طلب حاجةً من نبيٍّ أو وليٍّ هو أنّ الله سمّىٰ الدعاء عبادةً، ومن طلب حاجته من النبي أو أحد الصالحين والأولياء فقد دعاه، والدعاء عبادة، فيكون ذلك الشخص قد عبد غير الله وجعل له شريكاً.

قال الصنعاني في «تنزيه الاعتقاد»: وقد سمّى الله الدعاء عبادةً بقوله: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾، وفي الهدية السنيّة عنه ﷺ: *«الدعاء مخ العبادة»* رواه الترمذي، وفي رواية: *«الدعاء هو العبادة»* ثم قرأ ﷺ: وقال ربّكم: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ رواه أحمد وأبو داود والترمذي.

فمن هتف باسم نبيٍّ أو صالحٍ عند الشدائد كقول: يارسول الله، يابن عباس، بدون أن يتبعه بشيء، أو قال: إشفع لي إلى الله في حاجتي، أو استشفع بك إلى الله في حاجتي، أو نحو ذلك، أو قال: إقضِ ديني، أو إشفِ مريضي، أو نحو ذلك، فقد دعا ذلك النبي والصالح، والدعاء عبادة بل مخّها كما عرفت، فيكون قد عبد غير الله وصار مشركاً؛ إذ لايتمّ التوحيد إلّا بتوحيده تعالىٰ في الإلهية باعتقاد أن لا خالق ولا رازق غيره، وفي العبادة بعدم عبادة غيره ولو ببعض العبادات، وعبّاد الأصنام إنّما أشركوا بعدم توحيد الله في العبادة كما مرّ مفصّلاً[1].

والدليل المذكور يتكوّن من مقدّمتين: صغرىٰ وكبرىٰ:

الأولىٰ: هي أنّ الهتاف باسم النبي أو الصالح وطلب الحاجة منه دعاء.

والثانية: هي أنّ كلّ دعاءٍ عبادة، ونتيجة القياس المذكور: من دعا غير الله فقد عبده وأشرك به.

والجواب عنه: أنّ هذا القياس مخدوش بصغراه وكبراه. أمّا من ناحية الصغرىٰ فكما قيل في جواب الدليل الثالث: للدعاء معنيان: أحدهما: المعنى اللغوي وهو الدعوة والنداء، والآخر: المعنى العرفي وهو التضرّع إلى الله سبحانه بخشوع وخضوع مع الاعتقاد بأُلوهيته وربوبيته.

---

١. نقلاً عن كشف الارتياب: ٢٣٣.

وما الأحاديث التي حثّت على الدعاء، والأدعية الواردة في الأحاديث الشريفة بهدف تعليم المسلمين طريقة الدعاء الصحيحة، إلّا نماذج على المعنى الثاني، لابمعنىٰ مطلق الدعاء.

وبناءً علىٰ هذا، فإنّ صغرىٰ القياس ـ قول: يارسول الله ـ غير صادقة علىٰ دعوة رسول الله ﷺ إلّا إذا كانت مقترنة بالاعتقاد بأُلوهيته وربوبيته مع الخضوع والعبودية له، فإن اقترنت فحينئذٍ يكون هذا الدعاء دعاءً لرسول الله ﷺ ويستلزم الشرك.

بيد أنّه لايعتقد أحد من المسلمين بأُلوهية النبي ﷺ حين قوله: يارسول الله، طالباً منه بعض حوائجه، بل شأنه في ذلك شأن من يطلب حاجةً من أخيه الإنسان، ومثله مثل الغريق المستغيث بهذا وذاك، والمتشبّث بكلّ قشّة.

أيعتبر صرخات الاستغاثة التي يطلقها الإنسان طالباً إنقاذه من الغرق أو الحرق، أو تخليصه من يد الظالم الطاغي، دعاءً بالمعنى الاصطلاحي والعرفي، فتكون عبادةً ويصبح الإنسان مشركاً؟!

وإذا لم يسلم هذا الاعتراض على الصغرىٰ أن يقال: كلّ دعوة واستغاثة وتوسّل هي دعاء، وإنّنا نأخذ بالمعنى اللغوي الموضوع له هنا، فالجواب: أنّ كبرىٰ القياس غير تامة أيضاً، إذ ليس كلّ دعاء عبادة، فالعبادة تعني الخضوع والعبودية القائمة على الاعتقاد

بأُلوهية المعبود، أي الخضوع اللفظي والقلبي مقابل من يعتقد الشخص بأُلوهيته، فلو نادينا شخصاً واستغثنا به، لانكون أبداً قد عبدناه.

ففي الصحيفة السجادية حينما نقرأ: *«وسمّيت دعاءك عبادة»* لايعني أيّ دعاء، لذا فليس كلّ دعاءٍ عبادةٍ، بل دعاء الله فقط هو العبادة.

وكذلك الأحاديث النبوية المروية: *«الدعاء عبادة أو مخّ العبادة»* تعني أنّ دعاء الله والتضرّع إليه عبادة لكن لا أيّ دعاء، بحيث لو نادىٰ شخص غيره قائلاً: يازيد، يارسول الله، يافلان، لاتكون عبادة قطعاً.

يقول ابن تيمية: كلّ من غلا في نبيٍّ أو رجلٍ صالح: وجعل فيه نوعاً من الإلهية، وجعل يقول ياسيّدي فلان، انصرني... وأغثني، فكلّ هذا شرك وضلال، يُستتاب صاحبه، فإن تاب وإلّا قُتل[١].

ويصحّ هذا الكلام في صورة واحدة، وهي ما إذا جعل الشخص النبيَّ أو غيره معبوداً وخالقاً له، ومدبّراً مستقلّاً، فهذا هو الشرك والضلال؛ أمّا لو لم يصاحب ذلك الاعتقاد بأُلوهيّته فليس هو بشركٍ، سواء كان المخاطب ميتاً أم حيّاً.

وممّا لاشكّ فيه عدم استلزام الاستغاثة والتوسّل بالأنبياء والأولياء عليهم السلام وسؤالهم قضاء الحوائج الاعتقاد بأُلوهيّتهم، فالمتوسّل

---

١. فتح المجيد: ١٦٧.

من المسلمين بقبور الأنبياء والأولياء والطالب منهم قضاء حوائجه لا يعتقد بأُلوهيّتهم بتاتاً، بل يجعلهم واسطةً وشفعاءً له إلى الله، ويتوسّل بهم إلى الله لقضاء حوائجه.

الفصل الثالث

طلب قضاء الحوائج من النبي صلى الله عليه وآله بعد وفاته

طلب قضاء الحوائج من النبي صلى الله عليه وآله بعد وفاته

واستدلّ ابن تيمية وأتباعه علىٰ حرمة طلب الحوائج من النبي صلى الله عليه وآله بعد وفاته ـ أو غيره من الأنبياء والأولياء ـ بأنّ صحابة النبي صلى الله عليه وآله والتابعين وتابعيهم لم يطلبوا قضاء حوائجهم من روح النبي وأرواح الأنبياء والأولياء قطّ، فجعل نهج الصحابة والتابعين دليلاً علىٰ حرمة ذلك، فقال في رسالة «زيارة القبور» ولم يكن أحد من سلف الأمة في عصر الصحابة ولا التابعين ولا تابعي التابعين يتخيّرون الصلاة والدعاء عند قبور الأنبياء ويسألونهم، ولا يستغيثون بهم، لا في مغيبهم ولا عند قبورهم[1].

ثم قال: ومن أعظم الشرك أن يستغيث الرجل بميّتٍ وغائب (إلىٰ أن قال:) وهذا حال النصارىٰ في المسيح وأمه وأحبارهم ورهبانهم، ومعلوم أنّ خير الخلق وأكرمهم على الله نبينا محمد صلى الله عليه وآله، وأعلم

---

١. نقلاً عن كشف الارتياب: ٢٢٨.

الناس بقدره وحقّه أصحابه، ولم يكونوا يفعلون شيئاً من ذلك، لا في مغيبه ولا بعد مماته[١].

ثم طرح إشكالاً آخر فقال: وإن قلت: هذا إذا دعا الله أجاب دعاءه أعظم ممّا يجيبه إذا دعوته، كما تقول للحي: ادعُ لي، وكما كان الصحابة يطلبون من النبي ﷺ الدعاء، فهذا مشروع في الحي، وأمّا الميّت من الأنبياء والصالحين وغيرهم فلم يشرع لنا أن نقول: ادعُ لنا، ولا اسأل لنا ربّك، ولم يفعل هذا أحد من الصحابة والتابعين، ولا أمر به أحد من الائمة، ولا ورد فيه حديث، بل الذي ثبت في الصحيح أنّهم لمّا أجدبوا زمن عمر رضي الله عنه استسقىٰ بالعباس وقال: اللّهم إنّا كنّا إذا أجدبنا نتوسّل إليك بنبيّنا فتسقينا، وإنّا نتوسّل إليك بعمّ نبيّنا فاسقنا، فيسقون، ولم يجيئوا إلىٰ قبر النبي ﷺ قائلين: يارسول الله، ادعُ لنا واستسقِ لنا، ونحن نشتكي إليك ممّا أصابنا، ونحو ذلك، لم يفعل ذلك أحد من الصحابة قطّ، بل هو بدعة ما أنزل الله بها من سلطان، بل كانوا إذا جاءوا عند قبر النبي ﷺ يسلّمون عليه، فإذا أرادوا الدعاء لم يدعوا الله مستقبلي القبر، بل ينحرفون عنه ويدعون الله وحده لا شريك له، كما يدعونه في سائر البقاع، انتهىٰ[٢].

وقال الصنعاني: كان الصحابة رضي الله عنهم يطلبون الدعاء منه ﷺ وهو حيّ، وهذا أمر متّفق علىٰ جوازه[٣].

---

١. كشف الارتياب: ٢٢٨.

٢. المصدر السابق: ٢٢٩ و٢٥٢.

٣. المصدر نفسه: ٢٣٢.

وقال محمد بن عبدالوهاب: وهذا جائز في الدنيا والآخرة، وذلك أن تأتي لرجلٍ صالحٍ حيٍّ مجالسك ويسمع كلامك تقول له: ادعُ الله لي، كما كان أصحاب رسول الله ﷺ سيسألونه في حياته، أمّا بعد موته فحاشا وكلّا أنّهم سألوا ذلك، بل أنكر السلف علىٰ من قصد دعاء الله عند قبره فكيف بدعاء نفسه؟[١].

ومن مجموع هذه الأقوال المنقولة نفهم ما يلي:

١ ـ لم يأتِ أحد من صحابة رسول الله ﷺ والتابعين وتابعي التابعين بالصلاة والدعاء عند قبور الأنبياء.

٢ ـ لم يطلبوا حوائجهم من الأنبياء ولم يستغيثوا بهم، لا في حال غيبتهم ولا عند قبورهم.

٣ ـ الاستغاثة بالميت أو الغائب من أعظم الشرك، وهو ممّا فعله النصارىٰ في المسيح وأُمه وأحبارهم ورهبانهم، فيما لم يفعل أصحاب رسول الله ﷺ ذلك، لا في حياته ولا بعد مماته.

٤ ـ ثمة فرق بين دعاء الحيّ كما كان أصحاب الرسول ﷺ يدعونه حال حياته ويطلبون منه الدعاء لهم وبين طلب ذلك من الميت، فيشرع في الأول دون الثاني، ولم يفعل هذا أحد من الصحابة والتابعين بحقّ النبي بعد موته.

٥ ـ لم يرد حديث دالّ علىٰ جواز دعاء الأموات وطلب الحاجة منهم، ولم يأمر بذلك أحد من أئمة المذاهب الأربعة، بل الثابت في

---

١. كشف الشبهات: ٢٨.

الحديث الاستغاثة والاستسقاء بالعباس عم النبي ﷺ في زمن الخليفة عمر لابقبر النبي ﷺ.

٦ ـ الاستغاثة بالميت بدعة، ولا دليل علىٰ جوازها، وما أنزل الله بها من سلطان.

٧ ـ كان الصحابة يسلّمون على النبي ﷺ فقط إذا جاءوا قبره.

٨ ـ كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا أرادوا الدعاء عند قبره لايستقبلون القبر، بل ينحرفون عنه ويدعون الله وحده وهم مستقبلون للقبلة، كما يدعونه في سائر البقاع.

٩ ـ كان السلف ينكر علىٰ من قصد دعاء الله عند قبر النبي ﷺ فكيف بدعاء نفس النبي وطلب الحاجة منه؟

ولأهمية كلّ نقطة نجد من الضروري أن نردّ علىٰ كلّ واحدة منها بشكل منفصل وموضوعي، رغبةً منّا في أن يكون بحثنا علمياً دقيقاً.

أمّا الأمر الأول والثاني وهما عبارة عن الاستناد إلىٰ سير الصحابة في ترك الدعاء والصلاة والاستغاثة عند القبور فيجاب عنهما بعدّة نقاط:

أولاً: أنّ إثبات هذا الأمر في غاية الصعوبة، بل هو محال؛ لأنّ لازم ذلك إحاطة ابن تيمية وكلّ من تابعه ـ وبعد مرور مئات الأعوام ـ بكافّة أوضاع وأحوال وأفعال الصحابة فرداً فرداً، أيمكن لشخصٍ ما الوقوف علىٰ جميع أحوال الصحابة والتابعين ومن ثم الشهادة بعدم صدور هكذا أمر منهم؟ لذا قيل بعدم قبول شهادة النفي، أي لو شهد

أحد مثلاً علىٰ أنّ فلاناً لم يصلِّ أو لم يصم أو لم يكذب ألبتة فلا يحظىٰ هذا النوع من الشهادات الدالّ على النفي والترك بالقبول، لتعذّر الاطّلاع علىٰ نفي الفعل مطلقاً.

وعلىٰ ضوء ذلك كيف يُدَّعىٰ أنّ الصحابة والتابعين وتابعي التابعين لم يدعوا ولم يصلّوا عند قبر النبي ﷺ وقبور الأنبياء، أو أنّهم لم يطلبوا منه شيئاً بعد كلّ هذا الفاصل الزمني الكبير بين المدّعين وبين أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين لهم، سيّما فيما يتعلّق بالدعاء والاستغاثة بالنبي ﷺ حيث لايؤتىٰ ـعادةً ـ بمثل هذه الأمور بصورة علنية وبصوت مرتفع، بل يؤتىٰ بها في الخفاء وبعيداً عن الأنظار؟

كيف يستطيع ابن تيمية الذي كان يعيش في القرنين السابع والثامن الهجري، ومحمد بن عبدالوهاب الذي ولد بعد أكثر من ألف عام على الهجرة النبوية وعصر الصحابة، ادّعاء استيعاب كافّة أحوال وأفعال صحابة رسول الله ﷺ، والزعم بعدم القيام بمثل تلك الأعمال عند قبر رسول الله ﷺ والقبور الأخرىٰ؟ إنّ هذا لايعدو عن الجزاف والادّعاء المفتقر إلى الدليل!

ربّما يقال بأنّه كما لايمكن نفي صدور هذه الأعمال من جميع الصحابة والتابعين، كذلك يتعذّر إثبات وقوعها أيضاً.

والجواب: لسنا بصدد إثبات صدور هذه الأعمال من أصحاب رسول الله ﷺ، بل نقول لهؤلاء المتمسّكين بكون سيرة الأصحاب والتابعين قائمة علىٰ ترك هذه الأعمال: إنّ إثبات قيام سيرة

الأصحاب على الترك متعذّر، وعدم الإثبات كافٍ في ردّ دليلهم.

وربّما يقال أيضاً: إذا كان الصحابة والتابعون يدعون فعلاً عند القبور ويطلبون حوائجهم هناك لنُقل عنهم ووصل هذا الأمر إلينا؛ وبما أنّه لم يصلنا شيء من هذا القبيل يتبيّن عدم حصول ذلك، ممّا يثبت أنّ السيرة العملية للأصحاب قائمة على الترك.

والجواب عنه: إنّ عدم نقل مثل هذه الأمور ليس دليلاً علىٰ نفي وقوعها؛ لأنّ كثيراً من أحوال وأفعال الأصحاب ظلّت خافيةً علينا، وذلك في ضوء البون الزمني الشاسع الذي يفصلنا عنهم، وعدم وجود داعٍ لنقل مثل هذه الموارد الجزئية، فضلاً عن ذلك فقد نقلت موارد كثيرة من الاستغاثة بقبر النبي ﷺ في الكتب المختلفة، وسنتطرق إلىٰ بعضها لاحقاً.

ثانياً: علىٰ فرض قبول ادّعاء كون سيرة الصحابة قائمة علىٰ ترك الدعاء والاستغاثة بقبر النبي وسائر القبور، لكن ترك الأصحاب لعملٍ ليس دليلاً علىٰ كونه بدعة؛ لأنّهم ربّما يتركون كثيراً من الأعمال المباحة والمستحبة، بل لايدلّ ترك النبي ﷺ لعملٍ علىٰ حرمته؛ لاحتمال كونه مكروهاً أو مباحاً، بل ربّما يترك النبي ﷺ المستحبّ أيضاً.

كما أنّ المداومة على الترك ليست دليلاً على الحرمة؛ لاحتمال الكراهة أو الإباحة، إذ إنّ المواظبة علىٰ ترك عملٍ من قبل المعصوم كالنبي ﷺ، حيث إنّ قوله وفعله حجّة على الآخرين، دليل علىٰ

عدم رجحانه وعدم استحبابه ؛ إلّا أنّه ليس دليلاً علىٰ حرمة ذلك العمل.

وبقطع النظر عن ذلك، فإنّ قول وفعل أصحاب الرسول ليس بحجّة شرعية، بل الحجّة الشرعية قول وفعل المعصوم فقط. نعم، لو كانت السيرة العملية كاشفة عن رضا المعصوم، فإنّها تكشف عن صحّة أو جواز ذلك العمل، لكن السيرة علىٰ ترك الفعل ليست دليلاً علىٰ حرمة ذلك الفعل حتّىٰ في حضور المعصوم أيضاً؛ فماأكثر الأعمال التي لم تكن مواضيعها موجودة علىٰ عهد النبي صلى الله عليه وآله والأصحاب ثم وجدت لاحقاً؛ كركوب السيارة والطائرة، وأغلب الأطعمة والأدوية، أو الأمور التي لم يكن لها أثر آنذاك ثم وجدت بعد ذلك؛ كجهاز الهاتف والتلّغراف واللاسلكي والمذياع والتلفاز وغيرها من الاختراعات الجديدة.

ولو أردنا القول كلّ عملٍ لم يأتِ به أصحاب النبي صلى الله عليه وآله فهو بدعة وحرام، لوجب علينا الذهاب إلىٰ حرمة كلّ هذه الأفعال والأعمال والاختراعات الجديدة!

الأصل: الإباحة أو الحرمة؟

أحد البحوث الأساسية في كتب الأصول هي: هل الأصل في المواضيع التي لم يرد في الشارع دليل ونصّ علىٰ حكمها: الحرمة والمنع أم الإباحة والجواز؟

ويمكن بحث هذا الموضوع بصورتين مختلفتين:

أحدهما: اعتبار الأصل في الأمور التي لم يبيّن الشارع فيها حكماً من الأحكام الخمسة ـ أي الحرمة أو الوجوب أو الاستحباب أو الكراهة أو الإباحة ـ إمّا المنع والحرمة، وإمّا الإباحة والجواز، وإمّا التوقّف وعدم الحكم بأيّ منهما. ويلزم من طرح هذا النوع من البحوث أن لايكون للشارع حكماً في بعض الأمور والمواضيع، لا حكماً إلزامياً من قبيل الوجوب والحرمة، ولا غير إلزامي كالاستحباب والكراهة والإباحة، ففي هذا النوع من المواضيع: هل يجب القول ـ تبعاً لحكم العقل ـ بالمنع والاجتناب أم بالإباحة والجواز؟

وقد طُرح هذا البحث في الأُصول تحت عنوان (الإباحة والحظر «المنع»)، وما يقتضيه حكم العقل هو حكم واقعي؛ لأنّ الحكم الظاهري يأتي في الموارد التي يُشكّ فيها بالحكم الواقعي، والمفروض هنا عدم وجود شكّ في الحكم الواقعي، بل هناك موضوع خالٍ من الحكم.

والصورة الثانية للبحث أن يقال: في الأمور المفتقرة إلى النصّ والدليل الشرعي التي لم يبلغنا حكمها الواقعي: هل الأصل الأولي فيها هو الحرمة والمنع فيجب الاحتياط فيها مع الإمكان، أو الأصل الإباحة والجواز فلا يجب الاحتياط فيها؟

ولابدّ أن يكون المراد من هذا الأصل ما يعمّ حكم العقل والشرع؛

أي يبحث الموضوع من وجهة نظرهما، وأيّاً كان حكم العقل والشرع فهو حكم ظاهري؛ لإحراز موضوع الحكم الظاهري وهو الشكّ في الحكم الواقعي، فربّما ينطبق هذا الحكم الظاهري علىٰ الواقع أو لاينطبق.

والصورة الأولىٰ لا تحظىٰ باهتمامنا؛ ذلك أنّه وفقاً للعمومات وإطلاقات الكتاب والسنّة لايخلو موضوع من الحكم الواقعي، فكلّ المواضيع ـ حتّى المستحدث منها ـ تندرج تحت أحد العمومات والإطلاقات، وعلى المجتهد الفحص والبحث للعثور علىٰ حكمه الشرعي، وإذا ما شكّ في الحكم ينتقل إلى البحث الثاني.

وإجمالاً فإنّ الأدلّة المذكورة للمنع والحظر غير تامّة، وبالتالي فإنّ العقل يحكم بالإباحة، سواء قبل حكم الشرع أو بقطع النظر عنه.

وأمّا الصورة الأُخرىٰ من البحث المتكفّل ببيان الحكم الظاهري في حالة عدم الوصول إلى الحكم الواقعي فما يمكن الإشارة إليه في هذا المختصر هو أنّ الأصل الجواز والإباحة من منظار الشيعة الإمامية وأتباع أهل البيت عليهم السلام، وأُقيمت علىٰ ذلك الأدلّة الشرعية من الكتاب والسنّة، ومن وجهة نظر العقل أيضاً لايستتبع ارتكاب مثل هذا الفعل العقاب والتوبيخ والمؤاخذة.

وعلىٰ هذا الأساس، فإن لم يثبت عمل الصحابة في موردٍ ما، ولم نجد دليلاً آخر على الإثبات أو النفي، لانستطيع الذهاب إلىٰ الحرمة، بل ـ وفقاً للأصل المذكور ـ يجب الحكم بإباحته، ومجرّد عدم عمل

الأصحاب وتركهم للموضوع لايصلح كدليل على الحرمة.

ثالثاً: علىٰ فرض قبول كلّ هذه المقدّمات وعدم عمل الأصحاب، ما التلازم بين حرمة الدعاء والاستغاثة عند القبور وبين الشرك والكفر؟

رابعاً: أنّ مراجعة بسيطة للتاريخ وكتب الحديث تثبت خلاف هذا المدّعىٰ من أنّ الصحابة والتابعين وتابعيهم لم يدعوا ولم يستغيثوا عند قبر النبي صلى الله عليه وآله؛ فعلىٰ سبيل المثال نشير إلىٰ بعضٍ ممّا ذكره السمهودي ـ أحد علماء الشافعية ـ في كتابه «وفاء الوفا بأخبار دار المصطفىٰ»:

١ ـ أصاب الناس قحط في زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فجاء رجل إلىٰ قبر النبي صلى الله عليه وآله فقال: ***يارسول الله، استسق الله لأُمتك فإنّهم قد هلكوا***، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وآله في المنام فقال: ***إئت عمر فاقرئه السلام، وأخبره أنّهم مسقون.***

قال السمهودي: ومحلّ الاستشهاد طلب الاستسقاء منه صلى الله عليه وآله وهو في البرزخ، ودعاؤه لربّه في هذه الحالة غير ممتنع، وعلمه بسؤال من يسأله قد ورد، فلا مانع من سؤال الاستسقاء وغيره منه كما كان في الدنيا[1].

٢ ـ وروىٰ عن الحافظ أبي عبدالله محمد بن موسىٰ بن النعمان بسندٍ ينتهي إلىٰ علي بن أبي طالب عليه السلام: بأنّه بعد ثلاثة أيام من دفن النبي صلى الله عليه وآله جاء أعرابي من خارج المدينة وحثا التراب علىٰ رأسه

---

١. وفاء الوفا ٤: ١٣٧٤.

وقال: يارسول الله، قلت فسمعنا قولك، ووعيت عن الله سبحانه وما وعينا عنك، وكان فيما أنزل عليك: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللَّهَ﴾ وقد ظلمت نفسي، وجئتك تستغفر لي[١].

كما ونقل السمهودي في خاتمة الباب الثامن نماذج كثيرة ـ تبلغ زهاء ستة عشر مورداً ـ من طلب الحوائج من قبر النبي صلى الله عليه وآله، ومجموعها يثبت أنّ الاستغاثة بقبر النبي صلى الله عليه وآله وطلب الحوائج منه كانت السيرة المستمرة للمسلمين.

ثم قال في هذا المجال: كتب الإمام محمد بن موسىٰ بن النعمان كتاباً في هذا الموضوع أسماه ***«مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام»***[٢].

إنّ الوقائع والأخبار المذكورة في هذا المقام لاتخرج عن عدّة احتمالات: فإمّا أن يكون لجميعها نصيب من الواقع، وإمّا لبعضها دون بعض، وإمّا أن يكون أصل طلب الحاجة والاستغاثة بقبر النبي صلى الله عليه وآله أمراً واقعياً إلّا أنّ طلب الحوائج وقضاءها مجانب للواقع، وإمّا أن تكون بعض الحوائج قد قُضيت بالفعل وبعضها الآخر منسوباً إلى الكذب والجعل، لكن أصل طلب الحاجة ثابت في كافة الموارد والاحتمالات.

وبالنظر إلىٰ كلّ هذه الفروض والاحتمالات يثبت أنّ الاستغاثة

---

١. وفاء الوفا ٤: ١٣٧٤.

٢. المصدر السابق: ١٣٧٩ ـ ١٣٨٧.

بالنبي ﷺ وطلب الحوائج منه كان أمراً شائعاً لدى المسلمين، بغضّ النظر عن صحة أيٍّ من الاحتمالات المتقدّمة؛ لأنّ أصل الاستغاثة بالنبي ﷺ وطلب الحاجة والدعاء منه موجود ولو في بعض الموارد، وإذا كان ذلك أمراً قبيحاً وغير شرعي لنهىٰ عنه المسلمون وما انتشر بينهم.

وأمّا بناءً على الاحتمال الخامس وهو كون كلّ تلك الروايات كاذبة، غير واقعية، فإن هذا العمل لايوجب الشرك والكفر، وليس هو بحرام ولا بدعةٍ علىٰ فرض التسليم به؛ لأنّ الوضّاعين عادةً لايروون مواضيع تنتقصهم وتسقطهم من أنظار عامة المسلمين، ولايضعون ما يثبت شركهم وكفرهم، فعندما تكون تلك الأعمال بدعة وغير مشروعة في أنظار المسلمين، لايعقل أن ينسبها الوضّاعون إلىٰ أنفسهم، فيدّعون ـ مثلاً ـ أنّ النبي أصلح أمرهم وقضىٰ حوائجهم المتعلّقة بالمرض أو ضيق ذات اليد وما إلىٰ ذلك؛ لأنّ وضع مثل هذه الحكاية يؤكّد شرك وبدعة القائل والواضع قبل غيره، وهل رأيت أحداً يقوم بنقل ما يثبت شركه وكفره؟!

وعليه يلزم من وضع هذه الروايات:

(١) عدم كون الاستغاثة بالنبي ﷺ وطلب قضاء الحوائج منه بدعةً وأمراً غير مشروع وإلّا لما رووه.

(٢) أنّ كلّ من روىٰ هكذا موارد كان يرغب بإثبات قربه من رسول الله ﷺ، والحصول على الشهرة والمنزلة لدىٰ الناس.

وأمّا الأمر الثالث وهو قول ابن تيمية: «ومن أعظم الشرك أن يستغيث الرجل بميّت»، فمن خلال بحثنا لماهية وحقيقة الاستغاثة يتبيّن عدم وجود أيّ لون من ألوان الشرك في هذا العمل، لا الشرك في الربوبية ولا في الأُلوهية ولا في العبادة، فضلاً عن أعظم الشرك، فهل من يسجد للصنم ويتّخذه إلهاً وربّاً كمن يدعو النبي ﷺ ميتاً كما كان يدعوه حيّاً وهو لايعتقد به إلّا كونه رسول الله ومبلّغ رسالته؟؟

وأمّا الأمر الرابع وهو ذهابه إلى التفريق بين طلب الدعاء من الحيّ وبين طلبه من الميّت، فالجواب عنه واضح كلّ الوضوح؛ فبعد الاعتقاد بالحياة البرزخية وتصريح جميع المسلمين على اختلاف طوائفهم ومشاربهم بتمتّع النبي بعد موته بحياة برزخية أكمل وأفضل، وأنّه يسمع سلام من يسلّم عليه، لايبقىٰ مجال لمثل هذا الكلام.

وأمّا الأمر الخامس والسادس وهو قولهم: لم يرد حديث في ذلك، وأنّه بدعة في الدين، فيجاب عنهما بما يلي:

أولاً: إذا ما أردنا إثبات أمرٍ واجبٍ أو مستحبٍّ فيجب التعويل علىٰ حجّة شرعية من الكتاب والسنّة، أو كما يقولون: يجب ورود عمل الأصحاب فيه ليتسنّىٰ إثباته؛ فلا يمكن اعتباره عملاً واجباً أو مستحبّاً بلا حجّة شرعية، ويكون حينئذٍ بدعة محدثة في الدين؛ أي أُدخل في الدين ما لم يكن جزءاً منه.

أمّا لو أردنا أداء فعلٍ مباحٍ ـ لم يصل منعٌ بحقّه ـ فلا حاجة إلىٰ

ورود دليل لإثبات إباحته، بل عدم الدليل على الحرمة والمنع كافٍ في إثبات إباحة ذلك الفعل.

وبناءً علىٰ هذا، فإذا قيل: لا مانع من التوسّل بالنبي ﷺ والأولياء وطلب الحوائج منهم بعد موتهم باعتباره عملاً مباحاً، لايعدّ هذا الكلام بدعةً في الدين؛ لأنّ الأصل الأوّلي في مثل هذه الموارد هو الإباحة، ولم يرد من الكتاب أو السنّة دليل وحجّة شرعية لإثبات أصل الإباحة.

أمّا لو كان مقتضىٰ الأصل فيما لم يرد فيه نصّ على التحريم هو الحرمة أو التوقّف والاحتياط، فلا نستطيع حينئذٍ نسبة الإباحة إلى الشرع، فنقول: مباحٌ شرعيٌّ؛ وبما أنّنا توصّلنا في هذا البحث الأصولي الكلّي إلىٰ أنّ الأصل هو الإباحة، لذا نحكم بها، ولا بدعة هنا في البين.

ثانياً: يكفي في إثبات مشروعية دعاء الله بالصلاة عند قبور الأنبياء والصالحين والأماكن المقدسة وجود الإطلاقات والعمومات الواردة في القرآن والروايات الدالّة على استحباب الدعاء والصلاة من خلال حثّ المسلمين علىٰ أدائهما؛ كقوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1] وقوله: ﴿ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾[2].

وقوله ﷺ في الحديث النبوي المعروف: «*الدعاء مخ العبادة*»

١. غافر: ٦٠.

٢. الأعراف: ٥٥.

حيث إنّه يشتمل على الصلاة والدعاء في كلّ زمان ومكان، ولا يتضمّن قيوداً من ناحية الزمان أو المكان، ومن جملة تلك الأمكنة عند قبر النبي صلى الله عليه وآله وسائر قبور الأنبياء والأولياء، فلم يرد قيد في استثناء ذلك، ولم يرد نهي وتحريم فيها.

ثالثاً: فيما يتعلّق بالدعاء في حرم النبي صلى الله عليه وآله يلزم الالتفات إلىٰ كلام الإمام مالك بن أنس ـ وهو أحد الائمة الأربعة لأهل السنّة، وإمام الفرقة المالكية ـ إذ كان عند قبر النبي صلى الله عليه وآله فسأله أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي: أستقبل القبلة وأدعو، أم أستقبل رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فأجابه مالك: ***لِمَ تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله يوم القيامة، بل استقبله واستشفع به***[1].

ومن فقه هذا الحديث:

١ ـ كان الدعاء عند قبر النبي صلى الله عليه وآله ممّا عمل به التابعين، وعلىٰ رأسهم شخص مثل مالك أحد أئمة أهل السنّة.

٢ ـ لم ينكر عليه هذا الكلام أحد من علماء المدينة والمسلمين، وإن أنكروا عليه ذلك لسجّله التاريخ؛ لوجود دوافع لذكر مثل هذه الأمور من قبل خصومه.

٣ ـ أنّ التوسّل والتشفّع بالنبي صلى الله عليه وآله بعد وفاته ممّا كان شائعاً بين أوساط المسلمين، وعمل به فقهاء ومبرزين مثل الإمام مالك بن أنس حيث خاطب خليفة زمانه بالقول: «واستشفع به».

---

١. سبل الهدىٰ والرشاد ١١: ٤٣٩، وفاء الوفا ٤: ١٣٧٦.

٤ ـ قول الإمام مالك: «وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلىٰ يوم القيامة» وهذا الكلام إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ﴾[1].

٥ ـ أنّ حرمة رسول الله صلى الله عليه وآله بعد موته كحرمته حال حياته؛ لأنّه نبّه الخليفة إلىٰ أن هذا مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله ولا يجب أن يرفع صوته فيه، ثم تلا عليه قوله تعالىٰ: ﴿لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾[2] ثم ذكّره بالآية الذامّة لمن لم يراع الأدب عند الرسول الكريم صلى الله عليه وآله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾[3]

وبتلاوة هذه الآيات نبّه الإمام مالك المنصور إلىٰ أنّ حرمة الرسول ميتاً كحرمته حياً؛ ولو كانت هذه الآيات مختصّة بحياته صلى الله عليه وآله لمّا صحّ منه الاستناد إليها.

وبناءً علىٰ هذا، فكون النبي صلى الله عليه وآله وسيلةً للإنسان هو الذي دعا شخصاً كمالك إلى الاهتمام بمرقده الطاهر، وعدم صرف وجهه عنه، بل وإيصائه الخليفة بذلك.

ثم إنّه رتّب وفرّع علىٰ كون الرسول وسيلة للإنسان أمرين آخرين: أحدهما: الأمر باستقبال القبر، والآخر: الاستشفاع به، وهذا

---

١. المائدة: ٣٥.

٢. الحجرات: ٢.

٣. الحجرات: ٤.

هو معنىٰ الوسيلة والتوسّل؛ أي: بما أنّ رسول الله ﷺ وسيلتك، فيجب عليك استقباله، والاستشفاع به، والتوسّل إليه.

٦ ـ التصريح بجواز بل استحباب الاستشفاع بالنبي ﷺ في عالم البرزخ وبعد وفاته، خلافاً لما يدعو إليه البعض من حرمة ذلك وشرك القائل به! يقول مالك: «وهو وسيلتك»، كما هو المفهوم من جملة «استشفع به».

وكذلك جواز التوسّل بالنبي ﷺ في عالم البرزخ للأُمور الدنيوية؛ ذلك أنّه لمّا يجوز الاستشفاع به للأُمور الأُخروية كغفران الذنوب، فيجوز ذلك من باب أولى في الأُمور الدنيوية وقضاء حوائجها.

٧ ـ أنّ المسلمين كانوا يستقبلون قبر النبي ﷺ ثم يدعون الله تعالىٰ، وإلّا لما قال مالك للخليفة العباسي بكلّ صراحة: ***«استقبل القبر»*** وهو خلاف ما يقوله ابن تيمية: «بل كانوا إذا جاءوا عند قبر النبي ﷺ يسلّمون عليه، فإذا أرادوا الدعاء لم يدعوا الله مستقبلي القبر، بل ينحرفون عنه ويدعون الله وحده»[1].

---

١. ذكر السيد محسن الأمين في «كشف الارتياب» قضية الحوار الذي جرىٰ بين الإمام مالك والمنصور العباسي، نقلاً عن السمهودي في «وفاء الوفا» وغيره. ونقل عن خلاصة الكلام: أنّ القاضي عياض ذكر هذا الحديث بإسناد صحيح، كما ذكره السيد السمهودي في «وفاء الوفا» والعلّامة القسطلاني في «المواهب اللدنيّة» والعلّامة ابن حجر في «تحفة الزائر» و«الجوهر المنظم»، وذكره كثير من أرباب المناسك في آداب ←

والخلاصة: أنّ ممّا جاء في هذه الرواية عن مالك يتّضح جواب النقطتين السابعة والثامنة المتقدّمتين من أنّ الصحابة كانوا إذا أتوا قبر رسول الله ﷺ سلّموا عليه فقط، وإذا أرادوا الدعاء لايستقبلون القبر، بل ينحرفون عنه نحو القبلة.

ولم يرد ذلك عن مالك فقط، بل اعتبر استحباب استقبال القبر حين قراءة الدعاء والزيارة من آداب زيارته ﷺ علىٰ رأي عامة المذاهب، ولم يخالف إلّا الشواذّ بلصق صفة المشرك بمن استقبل القبر ودعا الله سبحانه.

وننقل فيما يلي عدداً من الفتاوىٰ في هذا المجال:

(أ) نقل السمهودي عن محمد بن عبدالله بن الحسين السامري الحنبلي قال: في كتاب «المستوعب في آداب زيارة النبي ﷺ»:... ويجعل القبر تلقاء وجهه، والقبلة خلف ظهره، والمنبر عن يساره، وذكر كيفية السلام والدعاء، منه: ***اللّهم إنّك قلت في كتابك لنبيّك عليه السلام:*** ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ﴾ ***الآية، وإنّي قد أتيت نبيّك مستغفراً، فأسألك أن توجب لي المغفرة كما أوجبتها لمن أتاه في حياته، اللّهم إنّي أتوجّه إليك بنبيّك*** ﷺ... وذكر دعاءً طويلاً[1].

← زيارة النبي ﷺ. قال العلّامة ابن حجر في «الجوهر المنظم»: رواية ذلك عن الإمام مالك جاءت بالسند الصحيح الذي لامطعن فيه. وقال العلّامة الزرقاني في «شرح المواهب» ورواها ابن فهد بإسناد جيد، ورواها القاضي عياض في «الشفا» بإسناد صحيح، ورجاله ثقات، ليس في إسنادها وضّاع ولا كذّاب.

١. وفاء الوفا ٤: ١٣٧٦.

(ب) وذكر السمهودي أيضاً كلاماً لأبي منصور الكرماني من الحنفية قال: إن كان أحد أوصاك بتبليغ التسليم تقول: ***السلام عليك يارسول الله، من فلان بن فلان، يستشفع بك إلىٰ ربّك بالرحمة والمغفرة، فاشفع له***[١].

ففي هذا التبليغ طلب الشفاعة منه للموصي أيضاً؛ أي اعتبر التوسّل والاستشفاع بالنبي ﷺ من آداب الزيارة في المذهب الحنفي.

(ج) وعن أصحاب الشافعي وغيره: يقف وظهره إلى القبلة، ووجهه إلى الحظيرة، وهو قول ابن حنبل[٢].

(د) وقال في خلاصة الكلام: أغلب علماء المذاهب الأربعة لمّا يتعرّضون لزيارة النبي ﷺ يقولون: إنّه يسنّ للزائر أن يستقبل القبر الشريف، ويتوسّل إلى الله في غفران ذنوبه، وقضاء حاجاته، ويستشفع به ﷺ.

ثم قال: قال العلماء الذين تعرّضوا لمناسك الحجّ: إنّ استقبال قبره الشريف وقت الزيارة والدعاء أفضل من استقبال القبلة[٣].

(هـ) وقال محقّق الحنفية الكمال بن الهمام: إنّ ما نقل عن أبي الليث من أنّه يقف مستقبل القبلة مردود بما روىٰ أبو حنيفة في مسنده عن ابن عمر رضي الله تعالىٰ عنهما، قال:

---

١. وفاء الوفا ٤: ١٣٧٦، كشف الارتياب: ٢٥٦.
٢. وفاء الوفا ٤: ١٣٧٨، كشف الارتياب: ٢٦١.
٣. وفاء الوفا ٤: ١٣٧٨. مع اختلاف في العبارة.

من السنّة أن تأتي قبر رسول الله ﷺ من قِبَل القبلة، وتجعل ظهرك إلى القبلة، وتستقبل القبر بوجهك.

قال السمهودي: وقال ابن جماعة في منسكه الكبير: ومذهب الحنفية أنّه يقف للسلام والصلاة عليه ﷺ عند الرأس المقدّس، بحيث يكون عن يساره، ويبعد عن الجدار قدر أربعة أذرع، ثم يدور إلىٰ أن يقف قبالة الوجه المقدّس مستدبر القبلة، فيسلّم ويصلّي عليه ﷺ [١].

وجاء في خلاصة الكلام: قال في الجوهر المنظم: ويستدلّ لاستقبال القبر أيضاً بأنّا متّفقون علىٰ أنّه ﷺ حيّ في قبره، يعلم زائره، وهو ﷺ لو كان حيّاً لم يسع الزائر إلّا استقباله واستدبار القبلة، فكذا يكون الأمر حين زيارته في قبره الشريف.

ثم قال: قال العلّامة الزرقاني في شرح المواهب: ***إنّ كتب المالكية طافحة باستحباب الدعاء عند القبر مستقبلاً له ومستدبراً للقبلة، ثم نقل عن مذهب الإمام أبي حنيفة والشافعي والجمهور مثل ذلك.***

قال: أمّا مذهب الإمام أحمد ففيه اختلاف بين علماء مذهبه، والراجح عند المحقّقين منهم أنّه يستقبل القبر الشريف كبقية المذاهب[٢].

ونقل السمهودي عن عياض قال: قال مالك في رواية ابن وهب:

---

١. وفاء الوفا ٤: ١٣٧٨. مع اختلاف في العبارة.

٢. كشف الارتياب: ٢٦١ ـ ٢٦٢.

إذا سلَّم علىٰ النبي ﷺ ودعا، يقف ووجهه إلى القبر، لا إلى القبلة[١].

ثم نقل عن ابن يونس المالكي عن ابن حبيب قال: ثم اقصد إذا قضيت ركعتيك إلى القبر من وجاه القبلة، فادنُ منه وسلِّم علىٰ رسول الله ﷺ، واثنِ عليه، وعليك السكينة والوقار، فإنّه ﷺ يسمع ويعلم وقوفك بين يديه.

ثم نقل عن النووي في «رؤوس المسائل» عن الحافظ أبي موسى الإصبهاني عن مالك قال: إذا أراد الرجل أن يأتي قبر النبي ﷺ فيستدير القبلة، ويستقبل النبي ﷺ، ويصلّي عليه ويدعو[٢].

(و) وقال إبراهيم الحربي في مناسكه: تولّي ظهرك القبلة، وتستقبل وسطه، يعني القبر.

وروىٰ أبو القاسم طلحة بن محمد في مسند أبي حنيفة، بسنده عن أبي حنيفة قال:

جاء أيوب السختياني فدنا من قبر النبي ﷺ، فاستدبر القبلة وأقبل بوجهه إلى القبر، وبكىٰ بكاء غير متباكٍ[٣].

(ز) وقال المجد اللغوي: روي عن الإمام الجليل أبي عبدالرحمان عبدالله بن المبارك قال: سمعت أبا حنيفة يقول:

قدم أيوب السختياني وأنا بالمدينة، فقلت: لأنظرنّ ما يصنع،

---

١. وفاء الوفا ٤: ١٣٧٧.

٢. المصدر السابق.

٣. المصدر نفسه.

فجعل ظهره ممّا يلي القبلة، ووجهه ممّا يلي وجه رسول الله ﷺ، وبكى غير متباكٍ، فقام مقام رجل فقيه[1].

(ح) وقال السبكي: وقول أكثر العلماء هو الأحسن، فإنّ الميت يعامل معاملة الحيّ، والحيّ يسلَّم عليه مستقبلاً، فكذلك الميت، وهذا لاينبغي أن يتردّد فيه[2].

(ط) وذكر المطري: أنّ السلف كانوا إذا أرادوا السلام على النبي ﷺ قبل إدخال الحجرات في المسجد وقفوا في الروضة، مستقبلين السارية التي فيها صندوق الخشب، أي لكونها في جهة الرأس الشريف، مستدبرين الروضة واسطوان التوبة. وتقدّم من رواية يحيىٰ عن زين العابدين علي بن الحسين أنّه كان يفعل نحو ذلك. وروىٰ يحيىٰ بسندٍ جيّدٍ عن أبي علقمة الغروي الكبير قال: كان الناس قبل أن يدخل البيت في المسجد يقفون علىٰ باب البيت يسلّمون.

قلت (أي السمهودي): وذلك لتعذّر استقبال الوجه الشريف حينئذٍ، ولذا قال المطري: فلمّا أُدخل بيت رسول الله ﷺ في المسجد، وأُدخلت حجرات أزواجه رضوان الله عليهنّ، وقف الناس ممّا يلي وجه النبي ﷺ واستدبروا القبلة للسلام عليه، فاستدبار القبلة في هذه الحالة مستحبّ كما في خطبة الجمعة والعيدين وسائر الخطب

---

١. وفاء الوفا: ١٣٧٨.

٢. المصدر السابق: ١٣٧٩.

المشروعة، كما قاله ابن عساكر في التحفة[١].

(ي) وقال ابن زبالة: عن سلمة بن وردان قال: رأيت أنس بن مالك رضي الله تعالى عنهما إذا سلَّم على النبي ﷺ يأتي فيقوم أمامه، وفي كلام أصحابنا: أنّ الزائر يستقبل الوجه الشريف في السلام والدعاء والتوسّل، ثم يقف بعد ذلك مستقبل القبلة، والقبر عن يساره، والمنبر عن يمينه، فيدعو أيضاً، كما سنشير إليه[٢].

وفيه إشارة صريحة إلىٰ موضوع التوسّل.

مع الشيخ محمد بن عبدالوهاب

علّم الشيخ محمد بن عبدالوهاب أتباعه في رسالة «كشف الشبهات» أسلوب التعاطي مع من أشرك من المسلمين! وطريقة الاحتجاج عليهم! فقال: إن قال: أنا لا أعبد إلّا الله، وهذا الالتجاء إلى الصالحين ودعاؤهم ليس بعبادة، فقل له: أنت تقرّ أنّ الله فرض عليك إخلاص العبادة وهو حقّه عليك؟ فإذا قال: نعم، فقل له: بيِّن لي هذا الذي فرض عليك، وهو إخلاص العبادة لله وحده، وهو حقّه عليك، فإنّه لايعرف العبادة ولا أنواعها، فبيِّنها له بقولك: قال الله تعالىٰ: ﴿ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾، إذا علمت بهذا فقل له: هل هو عبادة؟ فلابدّ أن يقول: نعم والدعاء مخّ العبادة، فقل له: إذا أقررت أنّها عبادة، ودعوت الله ليلاً ونهاراً خوفاً وطمعاً، ثم دعوت في تلك الحاجة نبيّاً

---

١. وفاء الوفا ٤: ١٣٧٩.

٢. المصدر السابق.

أو غيره، هل أشركت في عبادة الله غيره، إذ قال الله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ وأطعت الله ونحرت له؟ فلابدّ أن يقول: نعم، فقل له: إذا نحرت لمخلوقٍ: نبيٍّ أو جنيٍّ أو غيرهما، هل أشركت في هذه العبادة غير الله؟ فلابدّ أن يقرّ ويقول: نعم.

وقل له أيضاً: المشركون الذين نزل فيهم القرآن، هل كانوا يعبدون الملائكة والصالحين واللات وغير ذلك؟ فلابدّ أن يقول: نعم، فقل له: وهل كانت عبادتهم إيّاهم إلّا في الدعاء والذبح والالتجاء ونحو ذلك؟ وإلّا فهم مقرّون أنّهم عبيد الله تحت قهره، وأنّ الله هو الذي يدبّر الأمر، ولكن دعوهم والتجأوا إليهم للجاه والشفاعة...

[ثم قال:] فإن قال: أنا لا أُشرك بالله شيئاً حاش وكلّا، ولكن الالتجاء إلى الصالحين ليس بشرك، فقل له: إذا كنت تقرّ أنّ الله حرّم الشرك وهو أعظم من الزنا، وتقرّ أنّ الله لايغفره، فما هذا الأمر الذي عظّمه الله وذكر أنّه لايغفره؟ فإنّه لايدري، فقل له: كيف تبرّئ نفسك من الشرك وأنت لاتعرفه، أم كيف يحرّم الله عليك هذا ويذكر أنّه لايغفره ولاتسأل عنه ولاتعرفه؟ تظنّ أنّ الله يحرّمه ولايبيّنه لنا؟ فإن قال: الشرك عبادة الأصنام، ونحن لانعبد الأصنام، فقل: ما معنىٰ عبادة الأصنام؟ أتظنّ أنّهم كانوا يعتقدون أنّ تلك الأخشاب والأحجار تخلق وترزق وتدبّر أمر من دعاها؟ فهذا يكذّبه القرآن [يعني قوله تعالىٰ ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [1]] أو هو قصد أثر عبدٍ

١. يونس: ٣١.

صالحٍ: خشبة أو حجر أو بنية أو غيرها، يدعون ذلك الصالح عندها، ويذبحون له ويقولون: إنّه يقرّبنا إلى الله زلفىٰ، ويدفع عنّا ببركته، فقد صدقت، وهذا هو فعلكم عند الأحجار والبنايات التي على القبور وغيرها. فهذا قد أقرّ أن فعلهم هذا هو عبادة الأصنام، ويقال أيضاً: قولك: «الشرك عبادة الأصنام» هل مرادك أنّ الشرك مخصوص بهذا، وأنّ الاعتماد على الصالحين ودعاءهم لايدخل في هذا؟ فهذا يردّه ما ذكره الله في كتابه من كفر من تعلّق على الملائكة وعيسى والصالحين، فلابدّ أن يقرّ لك: أنّ من أشرك في عبادة الله أحداً من الصالحين فهو الشرك المذكور في القرآن، وهذا هو المطلوب[١].

وخلاصة ما توصّل إليه محمد بن عبدالوهاب من نتائج هي:

(١) أنّ دعاء الله تعالىٰ وطلب الحوائج منه عبادة، فإذا دعوت النبي صلى الله عليه وآله أو أحد الصالحين في قضاء الحاجة التي تريدها من الله، فقد جعلته شريكاً لله في تلك العبادة؛ لأنّ الدعاء مخّ العبادة.

(٢) أنّ عبادة المشركين للأصنام لاتعدو عن دعائها والذبح لها؛ لأنّ المشركين أنفسهم يعترفون بأنّ تلك الأخشاب والأحجار لا تخلق ولا ترزق ولا تدبّر أمر من دعاها، ويقرّون أنّ كلّ ذلك بيد الله تعالىٰ.

(٣) أنّ ما يقوله المشركون: نحن نعبد الأصنام لأنّها تقرّبنا من الله

---

١. كشف الشبهات: ١٤.

زلفىٰ، وهو بالضبط ما يقوم به المسلمون؛ إذ يستشفعون بالنبي والصالحين.

(٤) لاينحصر الشرك بمن يعبد الأصنام، بل يشمل من جعل الملائكة أو عيسى المسيح أو الصالحين شركاء لله.

والجواب عن ذلك:

أمّا الأول: فيتّضح جوابه ممّا تقدّم في معنى الدعاء والعبادة؛ فليس دعاء أيّ أحدٍ أو التوسّل به عبادةً له؛ لأنّه ليس كلّ دعاءٍ عبادةً، بل تصدق العبادة علىٰ بعض الأدعية؛ كدعاء الله وطلب الحاجة منه والخضوع والتضرّع إليه. وبناءً علىٰ هذا، فإن دعا أحدهم الله وعمل بقوله تعالىٰ: ﴿ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾ وفي الوقت ذاته استشفع بأحد الأنبياء أو الأولياء والصالحين، وطلب منه الدعاء لقضاء حاجته، فهذا الشخص عبد الله وحده ولم يشرك في عبادته أحداً، والتوسّل والاستشفاع بالنبي ﷺ ليس عبادةً له ليكون المتوسّل والمستشفع قد جعله شريكاً لله جلّ وعلا.

وأمّا الأمر الثاني المبتني علىٰ أنّ عبادة المشركين للأصنام ليست إلّا دعاؤها والذبح لها، فيجاب عنه بما يلي:

أولاً: كان المشركون يعبدون الأصنام، لا أنّهم كانوا يدعونها ويتوسّلون بها فقط، بل كانوا يعتبرونها ربّاً لهم، ويعدّونها المدبّر الحقيقي للعالم. ويشهد لذلك عدد من الآيات القرآنية، منها:

أ ـ ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾[١].

ب ـ ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾[٢].

ج ـ ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾[٣].

فيستفاد من قول إبراهيم عليه السلام: ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ أنّ المشركين يعتقدون أنّ الأصنام هي ربّهم ومدبّرة أمورهم، ثمّ قال إبراهيم عليه السلام:

د ـ ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾[٤].

إنّ أغلب المشركين حسبما تشهد آيات القرآن الكريم ـ سيّما مشركو مكة ـ أعرضوا عن عبادة الله تعالىٰ، وعكفوا علىٰ عبادة الآلهة بالسجود لها، ونحر الأضاحي لها، لذا أمر الله نبيّه في سورة «الكافرون» قائلاً: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾[٥].

إذن، ففضلاً عن توسّل المشركين بأصنامهم، كانوا يعبدون آلهةً وأرباباً غير الله، فشركهم لم يكن نابعاً من التوسّل وطلب قضاء الحوائج، فإنّ طلب الحوائج من الإنسان ليس إشراكاً بالله، وإلّا صار

---

١. الأنبياء: ٥٢.

٢. الأنبياء: ٥٣.

٣. الأنبياء: ٥٦.

٤. الأنبياء: ٦٦.

٥. الكافرون: ١ ـ ٤.

جميع الناس مشركين بطلبهم قضاء الحوائج من بعضهم البعض.

ثانياً: يؤمن المشركون بأنّ تدبير الأُمور أُحيل إلى آلهتهم، وقد بيّنا فيما مضىٰ أقسام الشرك، وقلنا: إنّ منشأ الشرك في العبادة الشرك في الخالقية والربوبية وتدبير أُمور العالم؛ فعلىٰ سبيل المثال: يؤمن بعض المشركين بأنّ تدبير أمور العالم بعد الخلق والإيجاد أُنيط بالأرواح أو الجِنّة أو الملائكة، فكانوا يجعلون لكلّ واحدٍ منها صوراً وتماثيل، ثم يؤدّون طقوس العبادة لها.

وعلىٰ هذا الأساس كان بعض العرب في الجاهلية يعبد الملائكة، وبعضهم الجِنّة، وبعضهم الكواكب الثابتة كالشعرىٰ، وبعضهم الكواكب السيّارة، وكانوا يعتقدون أنّها المدبّرة لأُمور العالم، لذا كانوا يصنعون لها الصور وينحتون التماثيل ويعبدونها كآلهة.

وكانوا يعتبرون تلك الأحجار والأخشاب صوراً وتماثيل للأرواح والملائكة، أو لمخلوقات أخرىٰ تقوم بتدبير العالم، واليوم ـ ونحن نعيش القرن الحادي والعشرين الميلادي ـ يقوْم عَبَدة الأوثان في العالم ـ كالهندوس مثلاً ـ بصنع تماثيل بأشكال مختلفة للأرواح أو للملائكة، فيجعلون لكل ظاهرة صنماً وتمثالاً خاصّاً، ثم يعكفون علىٰ عبادتها!

إنّهم يؤمنون أنّ أصل الخلقة لله وحده، أمّا بعد الخلقة فأُسند كلّ أمر لإلهٍ معيّنٍ؛ لذا كانوا يعبدونه. وعلىٰ هذا، كان المشركون ـ وما زالوا ـ يؤمنون بوجود شريكٍ للباري في الربوبية وتدبير أُمور العالم،

ولأنّهم يؤمنون بوجود آلهة متعدّدة لتدبير الأُمور، كانوا يطلبون حوائجهم في كلّ موردٍ من الإله المؤثّر والمدبّر لذلك الأمر؛ ظنّاً منهم أنّ كلّ إله يختصّ بأمر دون آخر!

واليوم ـ عصر الذرّة والفضاء ـ كذلك يطلبون كلّ حاجة من الصنم المخصّص بها؛ فمن لديه حاجة في موضوع الزواج يطلبها من الصنم المخصّص في هذا المجال، وهكذا في الزرع والنماء والسلامة و... فهؤلاء يعتقدون أنّ تدبير هذا الأمر قد فوّض إلىٰ روحٍ أو مَلَكٍ مختصّ، وذي الباع الطولىٰ فيه؛ وبما أنّه صعب المنال بالنسبة إلىٰ الإنسان، فهو يطلب حاجته من صورته وتمثاله!!

وقد عرض القرآن الكريم موضوعي عبادة غير الله وربوبيّة غيره بشكل جدّي، ففي آيات عديدة جعلت الربوبية وتدبير أُمور العالم من مختصّات الباري جلّ وعلا، ونفيت عن غيره ذلك، لنستعرض بعضاً منها:

١ ـ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّام ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1].

ويمكن استخلاص عدّة نقاط مهمة ذات صلة بالبحث من هذه الآية الشريفة:

---

١. يونس: ٣.

أولها: أنّ الربوبية وتنشئة الإنسان من مختصّات الذات الإلهية المقدسة، خالق السماوات والأرض، ولازم ذلك نفي أيّ ربٍّ غير الله تعالى؛ وبما أنّ المشركين يقرّون بخالقية الله للسماوات والأرض، كما يقول في آية أخرىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[١]، وفي هذه الآية: الله الخالق للسماوات والأرض هو ربّكم، فلا انفصال إذاً بين الربوبية والخلقة.

ثانيها: أنّه قال: هو المدبّر لجميع الأمور لا غيره.

ثالثها: هذا الإله وبهذه المواصفات هو ربّكم، لا ما أوجده فكركم ووهمكم من أرواح وملائكة، فتجعلون ربّاً لكلّ ظاهرة وأمر صادفتموه.

رابعها: فرّع سبحانه مسألة العبادة علىٰ مسألة الربوبية والمدبّرية، فقال: ﴿فاعبدوه﴾، فالفاء دالّة على التفريع؛ أي: بما أنّ ربّكم الله وحده فاعبدوه وحده، فالعبادة مترتّبة علىٰ ربوبية الله تعالىٰ.

خامسها: يستفاد من لهجة الآية أنّ منطق المشركين مقابل لهذا المنطق والفكر؛ فبما أنّهم عزوا الربوبية وتدبير الأمور إلىٰ غير الله من أصنام وتماثيل، كانوا يؤدّون طقوس العبادة أيضاً إلىٰ تلك الأصنام والتماثيل، فالقرآن في مقام نفي الشرك في الربوبية، والشرك في العبادة أيضاً.

سادسها: أنّ قوله تعالىٰ: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ يعبّر عن

---

١. لقمان: ٢٥.

عدم إمكان التدخّل والوساطة في تدبير أمور العالم إلّا بإذنٍ منه تعالىٰ؛ وعليه فالله سبحانه سبب أصلي، وكافة الأسباب تنتهي إليه، ولا أصالة ولا استقلال لأيّ سبب غيره.

والمراد من الشفاعة في هذه الآية المباركة: الوساطة في تدبير الأُمور، فهي في مقام نفي الشفعاء الذين جعلهم المشركون واسطة بينهم وبين الله جلّ شأنه؛ لأنّ الشفاعة والوساطة يجب أن تكون بإذنه فقط.

٢ ـ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[١].

٣ ـ وقوله: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً﴾[٢].

٤ ـ وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[٣].

ففي هذه الآيات الشريفة، رتّب تعالى العبادة علىٰ ربوبيّته، وبيّن الارتباط الوثيق بين التوحيد في العبادة والتوحيد في الربوبية، وقال في الآيتين الثانية والرابعة: هذا هو الصراط المستقيم؛ كلتاهما متعلّق بالنبي عيسىٰ عليه السلام، حيث نزلتا ضد من قال بأُلوهيّته، واستدلّ فيهما بأنّ

---

١. الزخرف: ٦٤.

٢. مريم: ٦٥.

٣. مريم: ٣٦.

الله تعالى هو ربّ عيسىٰ وربّ الجميع؛ وبما أنّه الربّ الوحيد فتختصّ العبادة به تعالىٰ وحده.

والنتيجة: أنّ ربوبية الله تعالىٰ مطلقة لا مقيّدة، ولا شيء يتخلّف عن الخضوع لها؛ لذا يجب الثبات والاصطبار علىٰ عبادته، وعدم الركون إلىٰ غيره.

والخلاصة أنّه يقال في ردّ الأمر الثاني: نستنتج من التمعّن في الآيات ما يلي:

١ ـ لم ينحصر شرك المشركين بالعبادة، بل تعدّاها إلى الشرك في الربوبية وتدبير الأمور أيضاً؛ لذا تمّ التأكيد في الآيات القرآنية على التوحيد في الربوبية وتدبير الأمور أيضاً.

٢ ـ أنّ منشأ الشرك في العبادة هو الشرك في الربوبية، وعلىٰ هذا الأساس فرّع القرآن الكريم التوحيد في العبادة على التوحيد في الربوبية ورتّبها عليها.

٣ ـ أنّه لا علاقة لشرك المشركين بالتوسّل إلى الأصنام وطلب الحوائج منهم ليقال: لا فرق بين طلب الحوائج من الأنبياء والأولياء عند قبورهم وبين طلب المشركين قضاء حوائجهم من الأحجار والأخشاب فكلاهما شرك، وذلك لأنّ:

أولاً: شرك المشركين مرتبط بإيمانهم بأُلوهية أصنامهم.

ثانياً: أنّ المسلمين لم يتوسّلوا بالقبور؛ أي بالأبنية وبالأحجار والأخشاب والذهب والفضة المستخدم فيها مطلقاً، بل يطلبون من

أرواح الأنبياء والأولياء الدعاء لهم، كما لايؤمنون بأُلوهيتهم بتاتاً، بل يعتبرونهم عباد الله المخْلَصين. فقياس هذا علىٰ ذاك قياس مع الفارق، وبعيد كلّ البُعد عن الإنصاف، ولاشكّ أنّه ناشئ من الجهل بأفكار وعقائد المسلمين.

وأمّا الأمر الثالث الذي طرحه الشيخ محمد بن عبدالوهاب هو أنّه قرن بين الاستشفاع الذي يقوم به المسلمون بالأنبياء والأولياء إلى الله تعالىٰ واستشفاع المشركين بأصنامهم، القائلين: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ﴾[١]!! ولإيضاح هذه المسألة وجوابها لابد من تقديم توضيحٍ حول استشفاع المشركين لتنقشع الضبابية التي تحيط بها.

فقد نزلت في هذا الصدد آيتان، إحداهما قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ﴾[٢].

ففي هذه الآية المباركة يعتبر قول المشركين: ﴿هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا﴾ تعليلاً لعبادتهم الأصنام، أي الهدف والعلّة من عبادة الأصنام هي كونهم شفعاءنا، بواسطة التقرّب لهم نرجو القرب من الله.

وفي الآية الأخرىٰ اعتبر ذلك علّة لعبادة الأصنام، فقال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[٣].

---

١. الزمر: ٣.

٢. يونس: ١٨.

٣. الزمر: ٣.

فهل كان أولئك يعتقدون أنّ هذه الأحجار والأخشاب والتماثيل المصنوعة بأيديهم وسيلة لقربهم إلى الله تعالى؟ إنّ الأحجار والأخشاب لاتمتلك شعوراً ولا أحاسيس، فكيف يتسنّىٰ لها أن تصبح واسطةً في قربهم إلى الله، وتغدو شفيعةً لهم؟

والواقع أنّه لو مددنا النظر إلىٰ أصل الوثنية وعقائد المشركين، لاتّضح أنّهم لايتقرّبون بالأحجار والأوثان التي يصنعونها بأيديهم، بل هم يتقرّبون إلىٰ أرباب تلك الأصنام التي يزعمون أنّ كلّ واحدٍ منهم مدبّر لجزءٍ من عالم الوجود، ويؤمنون بأنّ الإنسان لايستطيع التقرّب إلىٰ الذات الإلهية؛ فأين البشر المادّيون من إله الكون العظيم؟ فلابدّ لنا من التقرّب إليه بأرباب الأنواع؛ ذلك أنّه تعالىٰ فوّض إليهم زمام تدبير الخلق، وبما أنّنا لا نراهم، فنصنع لهم تماثيل تبرز صفاتهم، فمن يُعبد ـ في الحقيقة ـ هو أُولئك الأرباب، لا هذه الأحجار والأخشاب؛ لكن ربّما يلتبس الأمر على العوام فيعبدوا الأصنام بدل الأرباب.

هذا أصل وأساس الشرك والوثنية، لكن بمرور الزمن وتعاقب الأجيال أخذت العبادة طابع الاختصاص بالتماثيل، ونسبت مسألة الشفاعة والوساطة إلى الأصنام نفسها، وطوى النسيان الأرواح والملائكة والجنّ من أرباب الأنواع شيئاً فشيئاً، خاصةً لدىٰ عوام الناس؛ لذا نسب القرآن الكريم علىٰ لسان المشركين العبادة والشفاعة ـ أيضاً ـ إلى الأصنام.

لنعود إلىٰ نصّ الآيتين الشريفتين، قال تعالى في الآية الأُولىٰ:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لَايَضُرُّهُمْ وَلَايَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ﴾ فعبّر بقوله: ﴿وَيَعْبُدُون... مَا لَايَضُرُّهُمْ وَلَايَنفَعُهُمْ﴾ بدل قوله: (ويعبدون الأصنام) كي يشير إلىٰ أنّ هذه العبادة يمكن أن تكون نافعة في الشفاعة والقرب من الله تعالىٰ فيما لو كانت تلك الأصنام موجودات ذات شعور وأحاسيس؛ فتستطيع الإدراك أنّ المشركين إنّما يعبدونها، وبالتالي تشفع لهم عند الله، في حين أنّها أجسام ميتة، فاقدة للشعور، لاتفهم ولاتنفع ولاتضرّ.

ثم قال: ﴿أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لَايَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ﴾ أي: أتخبرون وتقولون: إنّ الله لايعلم أنّه خلق أرباباً، وأسند إليهم زمام أُمور العالم، وجعل هكذا شفعاء، وأنّه لايعرف آلهة من هذا القبيل لا في السماوات ولا في الأرض؟ إنّ هذا من أقبح الافتراءات المنسوبة إلى الله جلّ وعلا، أفيمكن أن يوجد شيء في العالم لايعلمه الله؟

هذا كناية عن عدم وجود مثل هذه الآلهة، وهو من قبيل ما لو سئل الشخص: هل قمت بالعمل الفلاني؟ فبدل أن يجيب بقوله: كلّا، لم أفعل، أجاب: لا علم لي به؛ وبعبارة أخرىٰ: نفى العلم عن نفسه باعتبار نفي الموضوع ونفي وجود المعلوم.

ثم قال تعالىٰ: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[١] وهذه الآية تنزّه الباري عن الشريك.

إذن، تضمّنت هذه الآية احتجاجين على المشركين: أحدهما قوله:

---

١. يونس: ١٨.

﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ والآخر قوله: ﴿أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾.

أمّا الآية الثانية المتّصلة بموضوع البحث فهي قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[1].

ونظراً إلىٰ ما تقدّم من البحوث السابقة يتجلّىٰ المراد من الآية، فالمشركون يذهبون إلىٰ وجود أرباب وآلهة سوىٰ الله تعالىٰ تدبّر أمور العالم؛ وعليه فهذه الآلهة ـ من وجهة نظرهم ـ هي المدبِّرة لأُمور الكون، لذا يجب الخضوع والخشوع لها لنحصل على النفع ونتجنّب الضرر.

وبذلك يتّضح أيضاً أنّ المراد من اتّخاذ الأولياء في صدر الآية هو اتّخاذ المشركين أرباباً من دون الله، فالمراد من الأولياء: الأرباب والمدبِّرون لأُمور العالم، يقول المشركون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ وهذا القرب مصداق لشفاعة الأصنام أو الأرباب عند الله. والهدف والغاية من هاتين الآيتين واحد؛ فشفاعة الأصنام أو الأرباب عند الله وتقريبهم من يعبدهم إليه إنّما يحصل بعبادة هذه الأصنام.

إنّ هذه الآية من سورة يونس سلّطت الضوء علىٰ كيفية الشفاعة وما تقوم به الأصنام بزعم المشركين، وذلك بقوله تعالىٰ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾.

---

١. الزمر: ٣.

والآن نتطرّق إلىٰ التفاوت بين هذين النوعين من الشفاعة: شفاعة الأصنام للمشركين، وشفاعة الأنبياء والأولياء للمسلمين، حيث يوجد بينهما فارق كبير ومن عدة جهات: من جهة طلب الشفاعة والشافع والمشفوع له، ومن جهة الكيفية أيضاً، وأهمّ هذه الفروق هي:

الأول: من جهة الوسيلة التي يستخدمها المشفوع له في طلب الشفاعة، فاستشفاع المشركين يحصل بواسطة أداء العبادة، وهو ما يعبّر عنه بالشرك في العبادة، وقد وضع كافة الأنبياء ـ سيما نبي الإسلام ﷺ ـ مقارعة الشرك في العبادة علىٰ سلّم أولوياتهم، وصرّح القرآن الكريم بذلك في الآيتين المتقدّمتين، منتقداً عمل المشركين في هذا المجال.

وينبغي الالتفات إلىٰ أنّ نفس الاستشفاع ليس شركاً وعبادة للشفيع كما تذرّع البعض بذلك لتحريم طلب الشفاعة، مستدلّين بهذه الآية علىٰ حرمة التشفّع بالنبي ﷺ وأولياء الله باعتبار أنّه شرك به تعالىٰ؛ وذلك لعدم دلالة أيٍّ من هذه الآيات علىٰ هذا المدَّعى الفارغ.

إنّ القرآن الكريم في هاتين الآيتين لم يذمّ المشركين لاستشفاعهم بالأصنام، بل لامهم لعبادتهم غير الله، وممارستهم الشرك في العبادة. إذن علّة إشراكهم ليست تشفّعهم بالأصنام، بل عبادتهم لها.

وعبادة الأصنام تختلف عن طلب الشفاعة منهم؛ فبرغم أنّ عنوان الاستشفاع بالأصنام ينطبق علىٰ عبادتهم، إلّا أنّه من قبيل انطباق عنوانين علىٰ فعلٍ واحد.

وفي مثالنا حول عبادة المشركين للأصنام والأوثان بقصد أنّها تشفع لهم عند الله، هناك عناوين مختلفة ومتعددة تنطبق علىٰ خضوعهم وعبادتهم لها:

أولها: أنّهم يعبدون الأصنام، وهذا العمل شرك في العبادة.

ثانيها: أنّهم يؤمنون بأنّ تدبير الأُمور قد أُسند إلى الأصنام؛ فهم مشركون من هذه الناحية أيضاً، ويعتقدون بوجود شريكٍ لله في تدبير العالم.

ثالثها: أنّهم يعبدون الأصنام من أجل أن تشفع لهم وتوجب قربهم من الله تعالىٰ، ومن هذه الناحية ينطبق عنوان الاستشفاع على العبادة والخضوع الذي يقومون به.

نعم، ثمة شرك اعتقادي فيه، وهو اعتبارهم الأصنام مستقلّةً في أمر الشفاعة، وغير محتاجةٍ إلى الله في ذلك؛ فيؤمنون أنّ تدبير الشفاعة وتحصيل القرب الإلهي قد فوِّض إليهم، شأنه في ذلك شأن الأُمور الأخرىٰ، ولاتأثير لله تعالىٰ في هذا المورد كباقي الموارد.

وبهذا الاعتقاد يكونون قد ارتكبوا الشرك في الربوبية وتدبير أمر الخلق، لكن نفس طلبهم وتوسّلهم ليس شركاً في العبادة بقدر ما هو شرك في الربوبية؛ فعنوان الاستشفاع لم يوجب شركهم، بل اعتقادهم باستقلال الأصنام أو الأرباب في قضية الشفاعة هو المسبّب لشركهم في الربوبية وتدبير الأمور، لا الشرك في العبادة.

وأمّا تشفّع المسلمين بالنبي وأولياء الله فلا يشبه عمل المشركين

قطّ؛ لوجود عدّة فروق بينهما، أهمها:

الأول: أنّ المسلمين لايعبدون النبي وأولياء الله، ولايعتقدون بأُلوهيّتهم وربوبيّتهم، كما لايؤمنون باستقلالهم في قضية الشفاعة، وغاية ما يطلبونه منهم هو الدعاء، سواء كان لأمر دنيوي أو أُخروي؛ كغفران الذنوب. وإذا ما رغبوا بالقرب الإلهي كان طلب الدعاء هو القرب منه تعالىٰ، وكلّ ما يطلبونه يرجع إلى الطلب من الله، فلا يخطر في بالهم أنّ أُولئك مستقلّون في عملهم.

وبناءً علىٰ هذا، فإنّ التشفّع بالنبي ﷺ والأولياء ليس شركاً في العبادة ولا في الربوبية، ولا يُفترض الشفعاء مختارين في أمر الشفاعة، بل يُعتبرون عباد الله المخلَصين، في حين أنّ تشفّع المشركين بالأصنام عكس ذلك تماماً؛ فمنذ متىٰ يعبد المسلم النبي ﷺ أو يعتقد بربوبيّته وأُلوهيّته نظير ما يفعله المشركون مع أصنامهم؟

والثاني: أنّ الشفاعة التي يؤمن بها المسلمون تبتني علىٰ أساس أنّ الشفعاء لايشفعون إلّا بإذنٍ من الله تعالى، وقد صرّح بهذه القضية في القرآن الكريم في عدّة مواضع، بينما يذهب المشركون إلىٰ استقلال الأصنام في أمر الشفاعة، وعدم امتلاك الله الخيرة من أمره! والعياذ بالله.

هذا وسنثبت في بحث الشفاعة[1] أنّ الشفاعة الصحيحة هي النابعة

---

١. البحث رقم (٥) ضمن هذه السلسلة سلسلة بحوث كلامية مقارنة، التي اعتنىٰ بطبعها المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية.

من الله تبارك وتعالىٰ، فنطلب من الله في بعض الأدعية جعل الائمة شفعاء لنا: «وشفّعهم في جميع ما سألتك».

والثالث: أنّ شفعاء المشركين عبارة عن أحجار وأخشاب أو ذهب وفضة نُحتت علىٰ شكل تمثال، ولاتمتلك أيّ ضربٍ من الشعور والإدراك والحركة، أمّا شفعاء المسلمين أُناس بلغوا مرحلة الكمال والقرب الإلهي، ويحظون بمقامٍ رفيعٍ ومكانةٍ ساميةٍ لديه تعالىٰ، وهم عباده المخلَصون، ولا مجال لمقارنتهم بالأصنام أو الأرواح أو الملائكة والجِنّة.

والرابع: اتّصاف المستشفعين بصفات خاصّة، وحيازتهم علىٰ صلاحية الشفاعة، فيما لم يذكر شرط أو قيد في المشركين، ويقولون بشكل عام: ﴿هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ﴾.

الاستغاثة بغير الله في الأحاديث

أشرنا فيما مضىٰ إلى التوهّمات التي أوردها البعض علىٰ مسألة الاستغاثة بالأنبياء والأولياء، وتطرقنا إلىٰ أجوبتها أيضاً. والآن نسلّط الضوء على الأحاديث الواردة عن رسول الله ﷺ في هذا المجال:

١ ـ روىٰ في خلاصة الكلام عن ابن السني، عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ:

«إذا انفلتت دابّة أحدكم بأرضٍ فلاةٍ فليناد: ياعباد الله، أحبسوا، فإنّ لله عباداً يجيبونه»[1].

---

١. كنز العمّال ٦: ٧٠٥ (مع تفاوت يسير).

وجاء في حديث آخر رواه الطبراني: أنّ رسول الله ﷺ قال: ***«إذا أضلّ أحدكم شيئاً، أو أراد عوناً بأرضٍ ليس فيها أنيس، فليقل: ياعباد الله، أعينوني»***[1].

وفي رواية أخرىٰ: «أغيثوني» بدل «أعينوني» وهي بمعنىٰ الاستغاثة والنصرة، ثم قال: «فإنّ لله عباداً لاترونهم»[2].

وبناء علىٰ هذا تكون الاستغاثة بغير الله جائزة ومشروعة، وممّا أمر به رسول الله ﷺ وقد نقل الفقهاء هذه الأحاديث في آداب السفر.

٢ ـ وفي خلاصة الكلام أيضاً: صحّ عن بلال بن الحارث رضي الله عنه: أنّه ذبح شاةً عام القحط المسمّىٰ عام الرمادة فوجدها هزيلةً، فصار يقول: ***وامحمداه وامحمداه***، وظاهر الحال أنّه استغاثة به ﷺ لا ندبة[3].

٣ ـ وصحّ أيضاً: أنّ أصحاب النبي ﷺ لمّا قاتلوا مسيلمة الكذّاب كان شعارهم: ***«وامحمداه! وامحمداه»*** وهو أظهر من السابق في الاستغاثة؛ لأنّه وقع في حياته ﷺ[4].

٤ ـ وفي الشفاء للقاضي عياض: أنّ عبدالله بن عمر خذلت رجله مرّة، فقيل له: اذكر أحبّ الناس إليك، فقال: ***وامحمداه!*** فانطلقت رجله، وهو من نوع الاستغاثة[5].

---

١. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ١٠: ١٣٢، المعجم الكبير ١٧: ١١٧ ـ ١١٨.

٢. كشف الارتياب: ٢٥٠.

٣. المصدر السابق: ٢٥٠ ـ ٢٥١.

٤. المصدر نفسه: ٢٥١.

٥. المصدر نفسه.

٥ ـ أنشد سواد بن قارب قصيدةً في رسول الله ﷺ أخرجها الطبراني في الجامع الكبير وغيره، وهي عبارة عن استغاثة وتوسّل برسول الله ﷺ:

وأشهد أنّ الله لا ربّ غيره
وأنّك مأمون على كلّ غائب
وأنّك أدنى المرسلين وسيلةً
إلى الله يابن الأكرمين الأطائب
فمرنا بما يأتيك ياخير مرسلٍ
وإن كان فيما فيه شيب الذوائب
وكن لي شفيعاً يوم لا ذو شفاعةٍ
بمغنٍ فتيلاً عن سواد بن قارب

ففي هذه القصيدة طلب الشاعر الشفاعة من النبي ﷺ وتوسّل به حال حياته، ولم ينكر عليه ذلك أحد من المسلمين ولا رسول الله نفسه؛ ويستشفّ من سكوته ﷺ إمضاء وتقرير الاستغاثة والتوسّل[1].

٦ ـ دخل أعرابي على رسول الله ﷺ وقال:
لقد أتيناك وما لنا بعير يبطّ لنا ولا صبي يغطّ، ثم أنشد قائلاً:

أتيناك والعذراء تدمى لبانها
وقد شغلت أُمّ الصبي عن الطفلِ

---

١. انظر: كشف الارتياب: ٣١٠.

ولا شيء مـمّا يأكـل النـاس عـندنا

سوى الحنظل العاميّ والعلهز الفسـلِ

وليس لنـــا إلّا إليك فـــرارنـــا

وأيــن فـرار النـاس إلّا إلى الرسـلِ

فقام رسول الله ﷺ يجرّ رداءه حتّىٰ صعد المنبر، فرفع يديه وقال: «*اللّهم اسقنا غيثاً مغيثاً*» فما ردّ النبي ﷺ يديه حتّىٰ ألقت السماء...

ثم قال: لله درّ أبي طالب! لو كان حيّاً لقرّت عيناه، مـن يـنشدنا قوله؟ فقام علي بن أبي طالب وقال: وكأنّك تريد يارسول الله قوله:

وأبــيض يســتسقي الغـمام بـوجهه

ثــمال اليــتامىٰ عــصمة للأرامــل

يــطوف بـه الهـلاك مـن آل هـاشم

فــهم عــنده فـي نـعمةٍ وفـواضـل[1]

ثم قام رجل من قبيلة كنانة وأنشد قائلاً:

لك الحــمد والحــمد مــمّن شكــر

ســـقينا بـــوجه النـــبي المــطر[2]

---

١. شرح ابن أبي الحديد ١٤: ٨٠ ـ ٨١ (مع تفاوت في العبارة).

٢. سيرة أحمد زيني دحلان المطبوعة في هامش سيرة الحلبي ١: ٨٢، نـقلاً عـن سـنن البيهقي عن أنس.

الفصل الرابع

التوسّل بالأنبياء عليهم السلام وأولياء الله

التوسّل بالأنبياء وأولياء الله

من القضايا التي اعتبرها البعض شركاً هي قضية التوسّل بالأنبياء وأولياء الله؛ أي جعلهم واسطة في الدعاء وطلب الحوائج من الله تعالى، ويمكن تصوّر ذلك بعدّة صور:

١ ـ التوسّل بذوات الأنبياء والأولياء، كأن يقال: «اللّهم إنّي أتوسّل إليك بنبيك محمد ﷺ أن تقضي حاجتي».

٢ ـ التوسّل بجاههم ومنزلتهم، كأن يقال: «اللّهم إنّي أتوسّل إليك بجاه محمد وحرمته أن تقضي حاجتي».

٣ ـ أن يقال: «أتوجّه به إليك».

٤ ـ أن يقال: «أقدّمه بين يدي حاجتي».

٥ ـ أن يقال: «اللّهم أُقسم عليك بحقّ محمد وآل محمد أن تقضي حاجتي».

وما شاكل ذلك من الأدعية؛ حيث إنّ مردّ جميع ذلك إلىٰ جعل النبي ﷺ أو أحد الأولياء والائمة واسطةً بين الداعي وبين الله جلّ

وعلا، ثم يسأل الله أن يقضي حاجته بحقّه.

إنّ التوسّل إلى الله بأيّ فردٍ من أفراد البشر، وبأيّ لفظٍ كان حرام من وجهة نظر البعض بل ويوجب الشرك في ذلك، ويعتبرون التوسّل نوعاً من الاستشفاع، وهو محرَّم وأحد ألوان الشرك.

ينقل عن محمد بن عبدالوهاب أنّه بعد ذكر الآية الشريفة: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ...﴾[١] قال: بيّن فيها الردّ على المشركين الذين يدعون الصالحين، ففيها بيان أنّ هذا الشرك الأكبر[٢].

وينقل عن الصنعاني أنّه قال في كتابه «تطهير الاعتقاد»: من توسّل بمخلوقٍ فقد أشرك مع الله غيره، واعتقد ما لايحلّ اعتقاده، كما اعتقد المشركون في الأوثان[٣].

كما اعتبر التوسّل بالمخلوق من جملة العبادات المؤدّية إلى الكفر والشرك[٤].

وقال ابن تيمية في رسالة «زيارة القبور»: وأمّا قول: بجاه فلان عندك، أو ببركة فلان، أو بحرمة فلان عندك إفعل بي كذا، فهذا يفعله كثير من الناس، لكن لم ينقل عن أحد من الصحابة والتابعين وسلف الأمة أنّهم كانوا يدعون بمثل هذا الدعاء، ولم يبلغني عن أحد من

---

١. الإسراء: ٥٧.

٢. كشف الارتياب: ٢٥١.

٣. المصدر السابق: ٢٥١ ـ ٢٥٢.

٤. المصدر نفسه: ٢٥٢.

العلماء في ذلك، ما أحكيه إلّا ما رأيت في فتاوى الفقيه أبي محمد ابن عبدالسلام أنّه لايجوز فعل ذلك إلّا للنبي ﷺ إن صحّ الحديث في النبي ﷺ، ثم قال: قد روىٰ النسائي والترمذي وغيرهما أنّه ﷺ علّم بعض أصحابه أن يدعو فيقول... وقالت طائفة: ليس في هذا جواز التوسّل به في مماته وبعد مغيبه، بل في حياته وبحضوره... إلىٰ أن قال: ولم يذكر أحد من العلماء أنّه يشرّع التوسّل والاستسقاء بالنبي والصالح بعد موته، ولا في مغيبه[١].

معنى التوسّل

التوسّل يعني توسيط شيء أو شخص من أجل الوصول إلى المطلوب، مع الاستفادة من الأسباب الطبيعية وغير الطبيعية. لكن المراد هنا جعل من له مقام وجاه ومنزلة عند الله واسطةً وشفيعاً إليه، فينال الإنسان مراده بواسطته، وهو نظير جعل خواصّ السلطان والمقرّبين منه واسطةً إليه؛ وهو علىٰ نوعين:

الأول: مراجعة الشخص الوسيط ومطالبته بالوساطة والشفاعة، وهو ما يقع في أغلب الوساطات. والاستغاثة بأولياء الله والتوسّل بهم وطلب الحوائج والشفاعة منهم من هذا النوع، أي نطلب منهم الدعاء والتضرّع إلى الله في قضاء حوائجنا وحلّ مشاكلنا، وقد تمّ تسليط الضوء علىٰ هذا النوع في بحث الاستغاثة وطلب الحوائج من أولياء الله، كما سنتعرّض له في بحث طلب الشفاعة لغفران الذنوب.

---

١. كشف الارتياب: ٢٥٢.

والثاني: أن يعرض الشخص حاجته على الله مباشرةً، لكنّه يطرح مقام ومنزلة الواسطة، فيقول علىٰ سبيل المثال: إلهي بحرمة ومقام ومنزلة رسول الله إقضِ حاجتي، وهذا النوع هو موضع بحثنا.

وقد عدّ البعض هذا النوع أيضاً من أقسام الشرك، أو اعتبروه غير مشروع، فيما أباحه البعض الآخر في خصوص النبي ﷺ. وإذا كان الحديث المرويّ في هذا المجال صحيحاً، فقد ذهب البعض إلىٰ اختصاص الجواز بحال حياته فقط، وعدم جوازه في الأموات.

وبغية إيضاح المطلب يجب دراسة الموضوع من ناحيتين، وفي محورين: أحدهما: من ناحية القواعد الكلّية، والثانية: من ناحية الروايات والأحاديث.

المحور الأول: القواعد الكلّية

يتحتمّ علينا هنا معرفة أيّ العناوين المفضية إلى الشرك والكفر -بنظر هؤلاء البعض- تنطبق على التوسّل؟ وهل أنّ التوسّل بمقام ومنزلة أو حرمة النبي أو أحد أولياء الله، أو القسم على الله بمنزلتهم وجاههم عبادة لهم؟ وهل أنّ معنىٰ ذلك دعاء غير الله؟

إنّ جواب السؤالين هو النفي؛ لعدم إقامة أيّ لون من ألوان الارتباط مع الواسطة، لا الخضوع أمامه ولا دعاؤه ومناداته؛ ولوجود فارقٍ بين هذا النوع من التوسّل والنوع الأول الذي تعرّضنا له في الأبحاث السابقة، فلا يرد عليه ما ورد على النوع الأول، من قبيل أنّه

دعاء غير الله، أو الاستغاثة بغير الله، أو طلب قضاء الحاجات ممّن لا قدرة لديه علىٰ قضائها... وما إلىٰ ذلك، لأنّ الاستغاثة والدعاء وطلب الحوائج في هذا النوع متّجهة إلى الله مباشرةً، والواسطة أو الشفيع ليس منظوراً إليه أو مخاطباً قطّ.

وعلىٰ هذا الأساس، لمّا نقل ابن تيمية في رسالة «زيارة القبور» حديثاً عن النبي ﷺ دالاً علىٰ جواز التوسّل، قال: وليس في التوسّل دعاء المخلوقين، ولا استغاثة بالمخلوق، وإنّما هو دعاء واستغاثة به تعالىٰ، لكن فيه سؤال بجاهه.

فلم يعتبر ابن تيمية ذلك موجباً للشرك، بل قال معقّباً: ليس في هذا جواز التوسّل به في مماته وبعد مغيبه، بل في حياته بحضوره... فهذا كان توسّلهم به، ولمّا مات توسّلوا بالعباس، وما كانوا يستسقون به بعد موته، ولا في مغيبه، ولا عند قبره، ولا قبر غيره[1].

وسوف نتطرّق في محور الروايات إلىٰ هذه الأحاديث الشريفة، ونبيّن عدم الفرق بين الحياة والممات.

هذا وقد نقل ابن تيمية نفسه عن طائفةٍ أنّ هذا ليس توسّلاً ودعاءً واستغاثةً بالمخلوقين، وهو يقرّ بذلك ظاهراً؛ إذ إنّه لم ينكره ولم يشكل عليه.

وبرغم ذلك نراه يقول في موضع آخر من هذه الرسالة: من توسّل

١. كشف الارتياب: ٢٥٢ ـ ٢٥٣.

بعظيمٍ عند الله كما يتوسّل إلى السلطان بخواصّه وأعوانه، فهذا من أفعال الكفّار والمشركين[١].

إلّا أن يكون مراده في هذا المقام النوع الأول من التوسّل، حيث صرّح بالشرك فيما نقل عنه في الأبحاث السابقة.

ثم إنّ عموم وإطلاق الكلمات المنقولة عن هؤلاء البعض من المخالفين في صدر هذا البحث، حيث اعتبروا التوسّل شركاً، يشمل هذا النوع من التوسّل أيضاً؛ لكن من غير المستبعد أن يكون مرادهم النوع الأول لا مطلق التوسّل؛ لأنّهم بسطوا البحث في هذا النوع فقط، واستدلّوا علىٰ حرمته بعدم ورود نصٍّ فيه، أو كونه بدعة...، ولم يشيروا إلىٰ موضوع الشرك، نظير ما جاء في الرسالة الثانية من الرسائل الهدية حيث قال:

وأمّا التوسّل وهو أن يقول القائل: اللّهم إنّي أتوسّل إليك بجاه نبيّك محمد ﷺ أو بحقّ نبيّك، أو بجاه عبادك الصالحين، أو بحقّ عبدك فلان، فهذا من أقسام البدعة المذمومة، ولم يرد بذلك نصّ كرفع الصوت بالصلاة على النبي ﷺ عند الأذان[٢].

فقد وصف التوسّل في هذا النصّ بالبدعة؛ لعدم ورود نصٍّ فيه، ولم يعتبره شركاً.

وقال في الرسالة الأولىٰ من الرسائل الهدية: اختلفوا في التوسّل

---

١. كشف الارتياب: ٢٥٢.

٢. نقلاً عن كشف الارتياب: ٢٦٣.

إليه تعالىٰ بشيء من مخلوقاته، هل هو مكروه أو حـرام؟ والأشـهر الحرمة[١].

وفي هذا المقطع من الكلام، لم يتم التطرّق إلى الشرك والكفر، بل إلى الحرمة والكراهة.

وقال أيضاً في الرسالة الأولى من الرسائل الهدية السنية: الإقسام على الله بمخلوق منهيّ عنه باتّفاق العلماء، قال: وهل هو نهي تنزيه أو تحريم؟ قولان، أصحّهما أنّه كـراهـة تـحريم، واخـتاره العـزيز بـن عبدالسلام في فتاويه، ثم نقل عن أبي حنيفة أنّه قال: لاينبغي لأحدٍ أن يدعو الله إلّا به، وأكره أن تقول: بمعاقد العزّ من عرشك أو بحقّ خلقك، وعن أبي يوسف: بمعاقد العزّ من عرشك هو الله، فلا أكره هذا، وأكره «بحقّ فلان» أو «بـحقّ أنـبيائك ورسـلك» ثـم حكـىٰ عـن القدوري: أنّ المسألة «بحقّ المخلوق» لاتجوز؛ لأنّه لا حقّ للمخلوق على الخالق[٢].

إذن، لم يعدّوا هذا النوع من التوسّل شركاً؛ لعدم وجود وجهٍ لذلك، طبق المعايير التي ذكروها للشرك، وإذا ما أطلقوا الشرك علىٰ مطلق التوسّل فبقرينة هذه الفتوىٰ يختصّ ذلك بالنوع الأول. ثم إنّهم اختلفوا في الحرمة والكراهة، ومن ذهب إلى الحرمة استدلّ عليها بعدم وجود

١. نقلاً عن كشف الارتياب: ٢٦٣.

٢. المصدر السابق: ٢٦٤.

نصٍّ في هذا المورد، لذا فهو غير جائز، بل بدعة، ويجاب عن ذلك بما يلي:

أولاً: سبق أن قلنا: في حالة عدم توفّر نصٍّ على الجواز فالأصل هو الإباحة، وعدم وجود دليل على الحرمة كافٍ للحكم بالإباحة، فالإفتاء بالحرمة يتطلّب دليلاً عليها.

ثانياً: أدلّة الدعاء وإطلاقاته تشمل ذلك؛ لأنّه نوع من أنواع الدعاء وعبادة الله تعالىٰ، ولا دليل علىٰ تقييده في هذا المورد.

ثالثاً: سنذكر في المحور الثاني مزيداً من الأدلّة الدالّة علىٰ استحباب خصوص هذا النوع من التوسّل.

المحور الثاني: جواز التوسّل في الروايات

هناك عدد كبير من الأحاديث في المصادر الروائية والتاريخية تدلّ علىٰ جواز وصحّة التوسّل بذوات الأنبياء والأولياء أو بجاههم، أو القَسَم على الله تعالىٰ بذواتهم وجاههم. وتقسَّم هذه الأحاديث إلىٰ عدّة فئات:

أ ـ التوسّل بالأعمال الصالحة.

ب ـ التوسّل بأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله للاستسقاء.

ج ـ التوسّل بالخمسة الطيّبين عليهم السلام قبل وجودهم.

د ـ التوسّل بالنبي صلى الله عليه وآله حال حياته.

هـ ـ التوسّل بالنبي صلى الله عليه وآله بعد وفاته.

و ـ التوسّل بالملائكة.

ز ـ التوسّل بالصالحين.

(أ) التوسّل بالأعمال الصالحة

١ ـ روي عن رسول الله ﷺ في صحيح البخاري، باب من برّ بوالديه ما نصّه:

بينما ثلاثة يتماشون أخذهم المطر فمالوا إلىٰ غارٍ في الجبل، فانحطّت علىٰ باب غارهم صخرة من الجبل فأطبقت عليهم، فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالاً عملتموها لله صالحة فادعوا الله بها لعلّه يفرجها. فقال أحدهم: اللّهم كان لي والدان شيخان كبيران، ولي صبية صغار كنت أرعىٰ عليهم، فإذا رحت عليهم فحلبت بدأت بوالديَّ أسقيهما قبل وُلدي، وأنّه نأىٰ بي الشجر فما أتيت حتّىٰ أمسيت فوجدتهما قد ناما، فحلبت كما كنت أحلب، فجئت بالحلاب فقمت عند رؤوسهما أكره أن أوقظهما من نومهما، وأكره أن أبدأ بالصبية قبلهما، والصبية يتضاغون عند قدمي، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتّىٰ طلع الفجر. فإن كنت تعلم أنّي فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا فرجةً نرىٰ منها السماء، ففرج الله لهم فرجةً حتّىٰ يرون منها السماء.

وقال الثاني: اللّهم إنّه كانت لي ابنة عم أحبّها كأشدّ ما يحبّ الرجال النساء، فطلبت إليها نفسها فأبت حتّىٰ آتيها بمائة دينار، فسعيت حتّىٰ جمعت مائة دينار فلقيتها بها، فلمّا قعدت بين رجليها قالت: ياعبد الله إتّق الله، ولاتفتح الخاتم [إلّا بحقّه] فقمت عنها. اللّهم

فإن كنت تعلم أنّي قد فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها، ففرج لهم فرجةً.

وقال الآخر: اللّهم إنّي كنت استأجرت أجيراً بفرق أرز، فلمّا قضىٰ عمله قال: أعطني حقّي، فعرضت عليه حقّه، فتركه ورغب عنه، فلم أزل أزرعه حتّىٰ جمعت منه بقراً وراعيها، فجاءني فقال: إتّق الله ولاتهزأ بي، فقلت: إنّي لا أهزأ بك، فخذ ذلك البقر وراعيها، فأخذه فانطلق. فإن كنت تعلم أنّي فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج ما بقيٰ، ففرج الله عنهم [فخرجوا][1].

وقد رويت هذه القصة في تفسير الدرّ المنثور ذيل قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً﴾[2] مع تفاوت يسير عن رسول الله ﷺ، من أربعة طرق مختلفة هي:

أ ـ عبد بن حميد وابن منذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه، عن النعمان بن بشير عن رسول الله ﷺ.

ب ـ أحمد وابن منذر، عن أنس عن رسول الله ﷺ.

ج ـ البخاري ومسلم والنسائي وابن منذر عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ.

د ـ البخاري في تاريخه عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ[3].

---

١. صحيح البخاري ٨: ٤.

٢. الكهف: ٩.

٣. الدرّ المنثور ٤: ٢١٢ ـ ٢١٣، ضمن تفسير سورة الكهف.

كما رويت في الكتب الشيعية مع شيء من الاختلاف، منها: في محاسن البرقي، عن عبدالرحمان بن أبي نجران، عن المفضّل بن صالح، عن جابر الجعفي، عن رسول الله صلى الله عليه وآله[١].

وبناءً علىٰ ذلك، فالحديث صحيح، ويجوز التوسّل بأيّ ضربٍ من ضروب العمل الصالح والخالص لوجه الله تبارك وتعالىٰ، نحو التوسّل بتضحيات الشهداء والمظلومين.

٢ ـ روىٰ عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«من خرج من بيته إلى الصلاة فقال: اللّهم إنّي أسألك بحقّ السائلين عليك، وأسألك بحقّ ممشاي هذا، فإنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً، ولا رياءً ولا سمعةً، وخرجت اتّقاء سخطك وابتغاء مرضاتك، فأسألك أن تعيذني من النار، وأن تغفر لي ذنوبي، إنّه لا يغفر الذنوب إلّا أنت، أقبل الله عليه بوجهه، واستغفر له سبعون ألف ملك»[٢].

إنّ هذا الحديث من أوضح الأحاديث الدالّة علىٰ جواز التوسّل بالسائلين لله، وبحقّ العمل الصالح والخالص لوجه الله، بل أُمر فيه بالتوسّل بشيئين:

أحدهما: التوسّل بالصالحين، وبمنزلة وحقّ السائلين لله تعالىٰ،

---

١. المحاسن ١: ٢٥٣، عنه تفسير نور الثقلين ٣: ٢٤٩.

٢. سنن ابن ماجة ١: ٢٥٦ ح٧٧٨، كتاب المساجد، مسند أحمد بن حنبل ٣: ٢١.

وقد بُحث هذا الموضوع في محلّه.

وثانيهما: التوسّل بحقّ العمل الصالح والخالص لوجهه تعالى، وهو موضوع بحثنا هنا. فطبقاً لهذا الحديث النبوي الشريف يكون التوسّل بالعمل الصالح المأتي به طلباً لوجهه الكريم أمراً مطلوباً ومستحباً.

(ب) التوسّل بأهل بيت النبي للاستسقاء

عن القسطلاني في شرح صحيح البخاري، عن كعب الأحبار: أنّ بني إسرائيل كانوا إذا قحطوا استسقوا بأهل بيت نبيّهم[١].

(ج) التوسّل بالخمسة الطيّبين عليهم السلام قبل وجودهم

أخرج الحاكم النيسابوري في المستدرك، والبيهقي في دلائل النبوة، وابن عساكر في تاريخه، والسيوطي في الدرّ المنثور، والآلوسي في روح المعاني عن عمر بن الخطاب، عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

> ***«لمّا أذنب آدم الذنب الذي أذنبه رفع رأسه إلى السماء فقال: أسألك بحقّ محمد إلّا غفرت لي، فأوحى الله إليه: ومن محمد؟ فقال: تبارك اسمك لمّا خلقتني [بيدك ونفخت فيّ من روحك] رفعت رأسي إلى عرشك فإذا فيه مكتوب: لا إله إلّا الله محمد رسول الله، فعلمت أنّه ليس***

---

١. انظر: كشف الارتياب: ٢٥٣.

أحد أعظم عندك قدراً ممّن جعلت اسمه مع اسمك، فأوحى الله إليه: ياآدم، إنّه آخر النبيين من ذرّيتك، ولولا هو ما خلقتك»[1].

وجاء في بعض الروايات تتمة للحديث بقوله:

«صدقت ياآدم، إنّه لأحبّ الخلق إليّ، إذ سألتني بحقّه فقد غفرت لك، ولولا محمد ما خلقتك».

توسّل الشافعي بأهل البيت عليهم السلام

قال ابن حجر: نظم الشافعي أبياتاً في التوسّل بأهل البيت عليهم السلام، منها:

آل النبي ذريعتي وهم إليه وسيلتي

أرجو بهم أُعطىٰ غداً بيدي اليمين صحيفتي[2]

إنّ هذين البيتين يمثّلان توسّلاً بأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله بعد وفاتهم.

ونقل صاحب كتاب الغدير عن شيخ الإسلام الحمويني في فرائد السمطين في الباب الأول: أنّ أبا هريرة قال: قال النبي صلى الله عليه وآله:

«لمّا خلق الله تعالىٰ آدم أبا البشر، ونفخ فيه من روحه، التفت آدم يمنة العرش، فإذا في النور خمسة أشباح سجّداً وركعاً، قال آدم: هل خلقت أحداً من طين قبلي؟!

---

١. الدرّ المنثور ١: ١٤٢ نقلاً عن الطبراني والحاكم وأبي نعيم الإصفهاني والبيهقي وابن عساكر في تاريخ الشام، المستدرك على الصحيحين ٢: ٦١٥، روح المعاني ١: ٢٣٧.

٢. الصواعق المحرقة: ١٨٠.

قال: لا يآآدم، قال: فمن هؤلاء الخمسة الأشباح الذين أراهم في هيئتي وصورتي؟! قال: هؤلاء خمسة من ولدك، لولاهم ما خلقتك، هؤلاء خمسة شققت لهم خمسة أسماء من أسمائي، لولاهم ما خلقت الجنّة والنار، ولا العرش ولا الكرسي، ولا السماء ولا الأرض، ولا الملائكة ولا الإنس ولا الجنّ، فأنا المحمود وهذا محمد، وأنا العالي وهذا علي،وأنا الفاطر وهذه فاطمة، وأنا الإحسان وهذا الحسن، وأنا المحسن وهذا الحسين. آليت بعزّتي أن لايأتيني أحد بمثقال ذرّةٍ من خردل من بغض أحدهم إلّا أدخله ناري ولا أبالي. ياآدم، هؤلاء صفوتي، بهم أنجيهم، وبهم أهلكهم، فإذا كان لك إليّ حاجة فبهؤلاء توسّل».

فقال النبي ﷺ:

«نحن سفينة النجاة، من تعلّق بها نجا، ومن حاد عنها هلك، فمن كان له إلى الله حاجة فليسأل بنا أهل البيت»[1].

في هذا الحديث أمر بالتوسّل بهؤلاء الخمسة في كلام الله تعالىٰ حين قال: «فبهؤلاء توسّل»، وكذلك في كلام رسوله ﷺ حين قال:

«فمن كان له إلى الله حاجة فليسأل بنا أهل البيت».

---

١. الغدير ٢: ٣٠٠.

وقد روىٰ الخوارزمي روايةً قريبةً من هذا المضمون[١].

وأخرج الحاكم في المستدرك حديثاً عن رسول الله ﷺ قال:

«لمّا اقترف آدم الخطيئة قال: ياربِّ أسألك بحقّ محمد لما غفرت لي، فقال الله: ياآدم وكيف عرفت محمداً ولم أخلقه؟ قال: ياربّ لأنّك لمّا خلقتني بيدك، ونفخت فيَّ من روحك، رفعت رأسي فرأيت علىٰ قوائم العرش مكتوباً: لا إله إلّا الله، محمد رسول الله، فعلمت أنّك لم تضف إلىٰ اسمك إلّا أحبّ الخلق إليك، فقال الله: صدقت يا آدم، إنّه لأحبّ الخلق إليَّ، أدعني بحقّه فقد غفرت لك، ولولا محمد ما خلقتك»[٢].

وقال العلّامة الأميني: أخرج الديلمي في مسند الفردوس كما في الدرّ المنثور[٣] بإسناده عن عليٍّ قال: سألت النبي ﷺ عن قول الله: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ فقال:

«إنّ الله أهبط آدم بالهند، وحوّاء بجدة (إلىٰ أن قال:) ***حتّىٰ بعث الله جبريل وقال: ياآدم ألم أخلقك بيدي؟ ألم أنفخ فيك من روحي؟ ألم أسجد لك ملائكتي؟ ألم أزوّجك حواء أمتي؟ قال: بلىٰ، قال: فما هذا البكاء؟ قال: وما***

---

١. المناقب: ٣١٨ ح ٣٢٠.

٢. المستدرك على الصحيحين ٢: ٦١٨.

٣. الدرّ المنثور ١: ٦٠.

يمنعني من البكاء وقد أُخرجت من جوار الرحمان؟ قال: فعليك بهؤلاء الكلمات، فإنّ الله قابل توبتك، وغافر ذنبك، قل: اللّهم إنّي أسألك بحقّ محمد وآل محمد، سبحانك لا إله إلّا أنت، عملت سوءً وظلمت نفسي فاغفر لي، إنّك أنت الغفور الرحيم. فهؤلاء الكلمات التي تلقّىٰ آدم»[1].

وأخرج ابن النجّار، عن ابن عباس قال: سألت رسول الله ﷺ عن الكلمات التي تلقّاها آدم من ربّه فتاب عليه؟ قال:

«سأل بحقّ محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلّا تبت عليَّ، فتاب عليه»[2].

وأخرجه الفقيه ابن المغازلي في المناقب كما في ينابيع المودة[3].

وفي الغدير أيضاً: وروىٰ أبو الفتح محمد بن علي النطنزي (المولود ٤٨٠هـ) في كتابه «الخصائص» عن ابن عباس أنّه قال: لمّا خلق الله آدم ونفخ فيه من روحه عطس فقال: الحمد لله، فقال له ربّه: يرحمك ربّك، فلمّا أسجد له الملائكة فقال: ياربّ خلقت خلقاً هو أحبّ إليك منّي؟ قال: نعم، ولولاهم ما خلقتك، قال: ياربِّ فأرنيهم، فأوحى الله إلىٰ ملائكة الحجب أن ارفعوا الحجب.

فلمّا رفعت إذا آدم بخمسة أشباح قدّام العرش، قال: ياربِّ من

---

١. الغدير ٧: ٣٠٠.

٢. الدرّ المنثور ١: ٦٠.

٣. ينابيع المودّة: ٢٣٩.

هؤلاء؟ قال: ياآدم، هذا محمد نبيّي، وهذا أمير المؤمنين ابن عمّ نبيّي ووصيّه، وهذه فاطمة بنت نبيّي، وهذا الحسن والحسين ابنا علي وولدا نبيّي. ثم قال: ياآدم هم ولدك، ففرح بذلك، فلمّا اقترف الخطيئة قال: ياربِّ أسألك بمحمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين لما غفرت لي، فغفر الله له، فهذا الذي قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ إنّ الكلمات التي تلقّاها آدم من ربّه: اللّهم بحقّ محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلّا تبت عليَّ، فتاب الله عليه[1].

وبرغم ذلك، وما عدّ البعض الحديث صحيحاً كما في مستدرك الحاكم، فقد كذّبه ابن تيمية!

قال السبكي في شفاء السقام[2]: قال ابن تيمية: أمّا ما ذكر في قصة آدم من توسّله فليس له أصل، ولانقله أحد عن النبي ﷺ بإسنادٍ يصلح للاعتماد عليه... ثم ادعىٰ ابن تيمية أنّه كذب![3]

كما روي هذا الحديث في الكتب التفسيرية والحديثية للشيعة أيضاً مع تفاوت يسير؛ فجاء في تفسير مجمع البيان وتفسير البرهان

---

١. الغدير ٧: ٣٠١؛ وورد فيه أنّ الحديث الذي رواه عمر بن الخطاب عن رسول الله ﷺ في توسّل آدم بالنبي محمد ﷺ قد نقل من الكتب التالية: البيهقي في دلائل النبوة، الحاكم في المستدرك واعتبراه حديثاً صحيحاً، الطبراني في المعجم الصغير، أبو نعيم في الدلائل، ابن عساكر في الخصائص، السبكي في شفاء السقام، القسطلاني في المواهب، السمهودي في وفاء الوفا، الزرقاني في شرح المواهب، العزّامي في فرقان القرآن، السيوطي في الخصائص الكبرىٰ وذلك عن عدد من الرواة.

٢. شفاء السقام: ١٢١.

٣. الغدير ٧: ٣٠٤.

في ذيل قوله تعالىٰ: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[١]:

إنّ آدم رآىٰ مكتوباً على العرش أسماءً معظَّمة مكرَّمة، فسأل عنها، فقيل له: هذه أسماء أجلّ الخلق منزلةً عند الله تعالى، والأسماء هي محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين، فتوسّل آدم عليه السلام إلىٰ ربّه بهم في قبول توبته ورفع منزلته[٢].

كما جاء في بعض هذه الأحاديث: أنّ آدم عليه السلام رأى خمسة أشباح نورانية... وفي ضوئها يتّضح تفسير الآية الشريفة؛ فالمراد من الكلمات ـ بناءً على الرواية الأُولى المذكورة في الكتب الحديثية لأهل السنّة ـ هو التوسّل بالنبي صلى الله عليه وآله، وبناءً على الأحاديث الواردة في كتب التفسير الشيعية وغيرها من الأحاديث المنقولة من كتب أهل السنّة يُراد منها الأشباح الخمسة الطيّبة، وأيّاً كان فإنّ هذه الأحاديث بمجموعها تثبت توسّل آدم عليه السلام بالنبي صلى الله عليه وآله قبل وجوده أو هو وبأهل بيته عليهم السلام.

وقد ورد هذا التوسّل في شعر الشعراء حيث نظموا فيه القصائد؛ كقول الواسطي:

به قد أجاب الله آدم إذ دعا	ونجا في بطن السفينة نوحُ
قوم بهم غفرت خطيئة آدم	وهم الوسيلة والنجوم الطُلّعُ

---

١. البقرة: ٣٧.

٢. مجمع البيان ١: ٨٩، تفسير البرهان ١: ٢١١.

(د) التوسّل بالنبي ﷺ حال حياته

هناك عدد كبير من الروايات في التوسّل بالنبي ﷺ حال حياته، نذكر بعضها:

الحديث الأول: روي عن عثمان بن حنيف أنّه قال: إنّ رجلاً ضريراً أتىٰ النبي ﷺ فقال: يانبي الله، ادعُ الله أن يعافيني، فقال: ***«إن شئت أخّرت ذلك فهو أفضل لآخرتك، وإن شئت دعوت لك»***.

قال: لا، بل ادعُ الله لي، فأمره أن يتوضّأ وأن يصلّي ركعتين، وأن يدعو بهذا الدعاء:

«اللّهم إنّي أسألك وأتوجّه إليك بنبيّك محمد ﷺ نبي الرحمة، يامحمد إنّي أتوجّه بك إلىٰ ربّي في حاجتي هذه، فتقضىٰ، وتشفعني فيه وتشفّعه فيَّ».

قال ابن حنيف: فوالله ما تفرّقنا وطال بنا الحديث حتّىٰ دخل علينا كأن لم يكن به ضرّ[1].

بحث سند الحديث

لا إشكال في صحّة سند هذا الحديث، فقد روي في مصادر كثيرة، منها:

١ ـ أخرج أحمد بن حنبل هذا الحديث عن عثمان بن حنيف بأسانيد ثلاث[2].

---

١. مسند أحمد بن حنبل ٤: ١٣٨، حديث عثمان بن حنيف، مع تفاوت يسير.

٢. المصدر السابق.

٢ ـ أخرج ابن ماجة هذا الحديث عن عثمان بن حنيف، ونقل عن أبي إسحاق قوله: هذا حديث صحيح[١].

٣ ـ أخرج الترمذي هذا الحديث، ثم قال: هذا حديث حسن صحيح غريب، لانعرفه إلّا من هذا الوجه، من حديث أبي جعفر، وهو الخطمي[٢].

٤ ـ ذكر هذا الحديث عن عثمان بن حنيف في التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول الذي يضمّ أحاديث الصحاح الخمسة عدا ابن ماجة. وقد عقد مؤلّفه باباً فيه تحت عنوان: «يجوز التوسّل إلى الله بأحبائه» وذكر فيه عدداً من الروايات الدالّة علىٰ جواز التوسّل[٣].

٥ ـ وفي غاية المأمول (وهو شرح التاج الجامع للأصول) جاء في ذيل الحديث: «بسند حسن صحيح» ثم قال: فهذه النصوص الصحيحة تفيد أنّ التوسّل إلى الله بالصالحين جائز، بل هو مطلوب في الشدائد، والمشاهد في التقرّب إلى الملوك بمن يحبّونه يؤيّد ذلك. وتقدّم في (كتاب النيّة) أنّ أصحاب الغار توسّلوا إلى الله بصالح أعمالهم فأجابهم الله، فإذا ثبت التوسّل بصالح العمل، فأولىٰ وأفضل وأعلىٰ بالصالحين، الذين هم مصدر الصالحات كلّها، بل هم محلّ نظر الله في الأرض

---

١. سنن ابن ماجة ١: ٤٤١ ح١٣٨٥.

٢. سنن الترمذي ٥: ٥٦٩ ح٣٥٧٨، كتاب الدعوات.

٣. التاج الجامع للأصول ١: ٣١٩، كتاب الصلاة، فصل: يجوز التوسّل إلى الله بأحبائه.

وفي السماء، كما في الحديث القدسي: ***«ما وسعني عرشي ولا فرشي ولا سمائي ولا أرضي، ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن»***.

والإنصاف خير من التشيّع للمذهب، والرجوع للحقّ فضيلة، ومع هذا فلتحقيق هذا الموضوع مؤلّفات خاصة، منها مؤلّف لصاحب الفضيلة الشيخ محمد حسنين العدوي وكيل الأزهر ومدير المعاهد سابقاً، ومنها فتاوىٰ لصاحب الفضيلة الشيخ يوسف الدجوي من كبار العلماء في مجلّة نور الاسلام.

٦ ـ أخرج الحاكم النيسابوري الحديث ثم قال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرّجاه[1].

٧ ـ وأخرج البيهقي هذا الحديث وذهب إلىٰ صحّته أيضاً.

٨ ـ قال زيني دحلان: أخرج هذا الحديث كلٌّ من البخاري في تاريخه، وابن ماجة والحاكم في المستدرك بإسناد صحيح، وجلال الدين السيوطي في الجامع.

٩ ـ قال الرفاعي في كتاب التوصّل: لاشكّ أنّ هذا الحديث صحيح ومشهور، وقد ثبت فيه بلاشكّ.

١٠ ـ أُخرج هذا الحديث في الرسالة الأولىٰ من الرسائل الهدية السنية عن الترمذي والحاكم وابن ماجة، وقيل عنه: حديث صحيح.

١١ ـ قال ابن تيمية في رسالة زيارة القبور: قد روىٰ النسائي

---

١. المستدرك على الصحيحين ١: ٣١٣.

والترمذي وغيرهما أنّه ﷺ علّم بعض أصحابه أن يدعو فيقول: *«اللّهم إنّي أسألك وأتوسّل إليك بنبيّك نبي الرحمة...»*.

دراسة دلالة الحديث

إنّ للحديث دلالة واضحة علىٰ استحباب التوسّل برسول الله ﷺ؛ لأنّه ﷺ علّم الرجل الذي رغب باستعادة بصره أن يدعو قائلاً: ***«اللّهم إنّي أسألك وأتوجّه إليك بنبيّك محمد نبي الرحمة»*** لذا فهو توسّل بشخص النبي ﷺ بأمرٍ منه.

ثم علّمه أن يتوجّه إلى النبي ﷺ بالخطاب قائلاً: ***«يامحمد إنّي أتوجّه بك إلىٰ ربّي»*** فجعل شخص النبي ﷺ وسيلةً وواسطةً له. وفي جميع جمل الدعاء جعل شخص النبي ﷺ وسيلةً للتوسّل بمناداته باسمه الكريم.

إنّ التركيز علىٰ بعض جمل الدعاء يوضّح أنّ التوسّل بشخص النبي ﷺ كان مقصوداً:

(أ) لفظ «بنبيّك محمد نبي الرحمة».

(ب) خطاب النبي بالقول: «يامحمد إنّي أتوجّه بك إلىٰ ربّي».

(ج) جملة «وشفّعه فيَّ» حيث تمّ التركيز علىٰ شخص النبي أيضاً، فطلب المتوسّل من الله أن يجعله شفيعاً له. يتّضح جواب مدّعىٰ صاحب كتاب «التوصّل إلىٰ حقيقة التوسّل» من أنّ التوسّل بشخص رسول الله ﷺ غير مقصود في هذا الدعاء، بل المقصود هو التوسّل بدعاء رسول الله!

إنّ غاية ما استدلّ به المؤلّف هو أنّ الرجل الأعمىٰ طلب من النبي الدعاء، فقال له النبي ﷺ: «*إن شئت أخّرت ذلك فهو أفضل لآخرتك، وإن شئت دعوت لك*» لكنّ الشخص الأعمىٰ أصرّ على الدعاء، وذيل دعاء رسول الله بقوله: «*اللّهم شفّعه فيّ*»؛ وعلىٰ هذا الأساس، المراد من ذلك التوسّل بدعاء رسول الله لابشخصه.

ولردّ هذه الدعوىٰ نقول: هناك أمران في الحقيقة: الأول: هو الحوار الحاصل بين رسول الله ﷺ والرجل الأعمىٰ، والثاني: الدعاء الذي علّمه النبي للرجل؛ وموضع الاستدلال ليس الحوار الذي جرىٰ بينهما، لأنّ الشخص طلب من النبي الدعاء، ولا دليل علىٰ أنّ النبي ﷺ أجابه إلىٰ ذلك ودعا له، بل علّمه دعاءً ليدعو بنفسه به.

وما يستدلّ به للأمر الثاني هو توسّل الرجل بشخص النبي ﷺ لا بدعائه، كما أوضحناه عمّا قليلٍ. وبناءً علىٰ هذا، فإنّ هذا الحديث يعدّ من الأحاديث الصحيحة الدالّة علىٰ جواز بل استحباب التوسّل بالنبي ﷺ حال حياته.

الحديث الثاني: أخرج الطبراني في الجامع الكبير والحاكم في المستدرك والبيهقي في دلائل النبوة وابن حبّان عن رسول الله ﷺ: أنّه لمّا ماتت فاطمة بنت أسد أم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وجهّز القبر لدفنها، قال رسول الله ﷺ:

«***الله الذي يحيي ويميت وهو حيّ لايموت، اغفر لأمّي فاطمة بنت أسد، ووسّع عليها مدخلها بحقّ نبيّك***

والأنبياء الذين من قبلي»[1].

قال أحمد زيني دحلان في كتابه (الدرر السنيّة): أخرج ابن أبي شيبة هذا الحديث عن جابر، كما أخرجه ابن عبدالبرّ عن ابن عباس وأبو نعيم[2].

إنّ هذا الدعاء يدلّ علىٰ صحّة التوسّل بالأحياء والأموات علىٰ حدٍّ سواء؛ فالتوسّل بالنبي ﷺ توسّل بالشخص الحيّ، والتوسّل بالأنبياء من قبله توسّل بحقّ الأموات.

يقول جعفر السبحاني: أخرج الطبراني هذا الحديث في جامعه الكبير والأوسط، وكذلك أخرجه ابن حبان والحاكم وصحّحوه[3].

الحديث الثالث: روي عن عبدالملك بن هارون بن عنترة، عن أبيه، عن جده: أنّ أبا بكر جاء إلى النبي ﷺ وقال: أنا أحفظ القرآن لكنّني أنساه، فقال له النبي ﷺ:

«قل: اللّهم إنّي أسألك بمحمد نبيّك، وإبراهيم خليلك، وبموسىٰ نجيّك، وعيسىٰ روحك، وبتوراة موسىٰ وإنجيل عيسىٰ وفرقان محمد، وبكلّ وحيٍ أوحيته وقضاءٍ قضيته».

قال ابن تيمية: روىٰ هذا الحديث من اشتغل بتأليف الكتب، كابن

---

١. كشف الارتياب: ٢٦٥، وفاء الوفا ٤: ١٣٧٣.

٢. نقلاً عن جعفر السبحاني، المذهب الوهابي: ١٥٩ (فارسي)، وفاء الوفا ٤: ١٣٧٣.

٣. المذهب الوهابي: ١٥٩.

السني وأبي نعيم، وأخرجه أبو الشيخ الإصفهاني في كتاب فضائل الأعمال، كما أخرجه زرين بن معاوية في الجامع، وابن الأثير في جامع الأصول، ولم ينسبه الأخيران إلىٰ كتابٍ من كتب المسلمين[1].

الحديث الرابع: أخرج موسىٰ بن عبدالرحمان الصنعاني صاحب التفسير بسنده عن ابن عباس: من أراد أن يحفظ القرآن فليكتب هذا الدعاء: ***«اللّهم إنّي أسألك بأنّك مسؤول لم يسأل مثلك ولا يسأل، وأسألك بمحمد نبيك، وإبراهيم خليلك، وبموسىٰ نجيّك، وعيسىٰ روحك وكلمتك ووجهك»***[2].

وهذا الحديث كسابقه في أنّه يدعو الله بمحمد وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ.

الحديث الخامس: روىٰ سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كانت يهود خيبر تقاتل غَطَفان، فكلّما التقوا هزمت يهود خيبر، فعاذت اليهود بهذا الدعاء: ***اللّهم إنّا نسألك بحقّ محمد النبي الأُمي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا في آخر الزمان، إلّا نصرتنا عليهم***، قال: فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموا غَطَفان، فلمّا بُعث النبي ﷺ كفروا به، فأنزل الله: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ﴾[3].

---

١. الشيخ نصيب، التوصّل إلىٰ حقيقة التوسّل: ٣١٠.

٢. التوصّل إلىٰ حقيقة التوسّل: ٣١٠، التوسّل والوسيلة: ١١٠.

٣. المستدرك على الصحيحين ٢: ٢٦٣، والآية: ٨٩ من سورة البقرة المباركة.

وهذا الحديث أيضاً يدلّ على التوسّل بالنبي ﷺ عند اليهود.

الحديث السادس: روي في الكتب التاريخية: أنّ عبد المطلب استسقىٰ بالنبي ﷺ وهو لم يزل طفلاً صغيراً، فأنشد أبو طالب قائلاً فيه:

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه ثمال اليتامىٰ عصمة للأرامل

وفي ذلك إشارة لاستسقائه بالنبي ﷺ[١]. وكذلك استسقىٰ أبو طالب بالنبي في عام قحط مكة، قال ابن عرفلة: قدمت مكة وقريش في قحط، فذهب الناس إلىٰ أبي طالب وقالوا: ياأبا طالب، أقحط الوادي وأجدب العيال فهلمّ فاستسق لنا، فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنّه شمس دجنة ـ أي ظلمة ـ تحلّت عنه سحابة قتماء، فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة ولاذ ـ أي طاف بأصبعه الغلام ـ وما في السماء قزعة ـ أي قطعة من سحاب ـ فأقبل السحاب من هاهنا واغدودق ـ أي كثر مطره ـ وانفجر له الوادي وأخصب النادي والبادي، وفي ذلك يقول أبو طالب:

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه ثمال اليتامىٰ عصمة للأرامل[٢]

إنّ الاستسقاء بالنبي ﷺ في زمن عبدالمطلب حينما كان طفلاً، وفي زمن أبي طالب لما كان شاباً، من القضايا المعروفة والمشهورة، وكانت من الأمور المتداولة في عصر النبي ﷺ؛ ولمّا دعا النبي ﷺ

---

١. دلائل النبوة ١: ٣٠٠.

٢. السيرة الحلبية ١: ١١٦.

لنزول المطر واستجيب دعاؤه، قال: ***«لله درّ أبي طالب، لو كان حيّاً لقرّت عيناه»*** فقام علي بن أبي طالب عليه السلام وقال: ***«وكأنك تريد يارسول الله قوله:***

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه   ثمال اليتامىٰ عصمة للأرامل»

ويستفاد من هذا الكلام أنّ الاستسقاء بالنبي صلى الله عليه وآله والتوسّل به إلى الله في صباه وشبابه كان يحظىٰ بقبوله ورضاه.

الحديث السابع: قال البخاري في صحيحه، وابن الأثير في كتابه «أُسد الغابة في معرفة الصحابة»: إنّ عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقىٰ بالعباس بن عبدالمطلب، فقال: ***اللّهم إنّا كنّا نتوسّل إليك بنبيّنا فتسقينا، وإنّا نتوسّل إليك بعم نبيّنا فاسقنا***[1].

فتفيد هذه الحادثة التاريخية: أنّ التوسّل بالنبي إلى الله وقع مراراً، فلفظ «كنّا نتوسّل» يدلّ على الاستمرارية، كما أنّ التوسّل بالعباس عم النبي يدلّ علىٰ أصل الجواز. وظاهر الدعاء أنّ الخليفة بنفسه انبرىٰ للدعاء، ولمّا استجاب الله دعاءه وأمطرت السماء قال: هذا والله الوسيلة إلى الله.

قال القسطلاني: لمّا أراد عمر أن يستسقي عام الرمادة خطب الناس فقال: ***يا أيّها الناس، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يرىٰ للعباس ما يرىٰ الولد لوالده، يعظّمه ويفخّمه ويبرّ قسمه، فاقتدوا أيّها الناس برسول الله في عمه العباس، واتّخذوه وسيلةً إلى الله عزّ وجلّ فيما***

---

١. صحيح البخاري ٢: ٣٤.

نزل بكم. وبهذا تمّ التصريح بالتوسّل في هذا العمل؛ فيبطل قول من منع التوسّل مطلقاً، أو جعله مختصّاً بالنبي ﷺ حيث توسّل بغيره[١].

علماً بأنّ التوسّل بالعباس إنّما كان توسّلاً بالنبي ﷺ؛ إذ قال عمر في دعائه: «إنّا نتوسّل إليك بعم نبيّنا فاسقنا» أي نتوسّل إليك بمن لديه جاه وحرمة عندك بواسطة قربه من النبي ﷺ، فكأنّه قال: إنّما نتوسّل إليك بالعباس لكونه عم النبي ﷺ لا غير؛ لذا لم يقل: «نتوسّل إليك بالعباس».

وقد أخرج ابن حجر العسقلاني في كتاب «فتح الباري في شرح حديث البخاري»: أنّ العباس قال في دعائه للاستسقاء: «وقد توجّه القوم بي إليك لمكاني من نبيّك».

قال السمهودي: وقد روىٰ ابن النعمان في «مصباح الظلام» قصة استسقاء عمر رضي الله عنه بالعباس عم رسول الله ﷺ نحو ما في الصحيح، وأنّ الحافظ أبا القاسم هبة الله بن الحسن رواها من طرق، وفي بعضها عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا قحط استسقىٰ بالعباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه، ويقول: ***اللّهم إنّا كنّا إذا قحطنا توسّلنا إليك بنبيّنا فتسقينا، وإنّا نتوسّل إليك بعم نبيّنا ﷺ فاسقنا***، قال: فيسقون. وفي رواية له عن ابن عباس، أنّ عمر رضي الله عنه قال: ***اللّهم إنّا نستقيك بعم نبيّنا ﷺ، ونستشفع إليك بشيبته***، فسقوا، وفي ذلك

---

١. المواهب اللدنية ٣: ٣٨٠.

يقول العباس بن عتبة بن أبي لهب:

بـعمي سـقى الله الحـجاز وأهـله
عشـــية يســـتسقي بشـيبته عـمر

وروي: أنّ العباس ﷺ قال في دعائه: ***وقد توجّه بي القوم إليك لمكاني من نبيك*** ﷺ[1].

وجاء في كتاب «أُسد الغابة في مـعرفة الصـحابة» لابـن الأثـير الجزري: استسقىٰ عمر بن الخطاب بالعباس رضي الله عـنهما عـام الرمادة لمّا اشتدّ القحط، فسقاهم الله تعالىٰ بـه وأخـصبت الأرض...

وقال حسّان بن ثابت:

سأل الإمـــام وقـد تـتابع حـدبنا
فســـقى الغـــمام بـــغرّة العـــباس
عـــم النـــبي وصـــنو والده الذي
ورث النـــبي بـــذلك دون النـاس
(أحيىٰ) الإله به البـلاد فأصـبحت
مـــخضرّة الأجـنـاب بـعد اليـاس

ولمّا سقى الناس طفقوا يتمسّحون بالعباس ويـقولون: هـنيئاً لك ساقي الحرمين[2].

وقال ابن تيمية في «رسالة زيارة القبور»: وفي الصحيحين أنّ عمر

---

١. وفاء الوفا ٤: ١٣٧٥.

٢. أُسد الغابة ٣: ١١١.

ابن الخطاب استسقىٰ بالعباس، فدعا وقال...[١]. وهو تصريح منه بصحّة هذه الرواية.

(هـ) التوسّل بالنبي ﷺ بعد وفاته

نشير فيما يلي إلىٰ بعض الروايات الدالّة علىٰ مشروعية التوسّل بالنبي ﷺ بعد وفاته:

١ ـ السمهودي: روىٰ الطبراني في الكبير عن عثمان بن حنيف: أنّ رجلاً كان يختلف إلىٰ عثمان بن عفان رضي الله عنه في حاجةٍ له، وكان لايلتفت إليه ولاينظر في حاجته، فلقي ابن حنيف فشكا إليه ذلك، فقال له ابن حنيف: إئتِ الميضأة فتوضّأ، ثم ائتِ المسجد فصلِّ ركعتين، ثم قل: «***اللّهم إنّي أسألك وأتوجّه إليك بنبيّنا محمد*** ﷺ ***نبي الرحمة، يامحمد إنّي أتوجّه بك إلىٰ ربّك أن تقضي حاجتي***» وتذكر حاجتك.

فانطلق الرجل فصنع ما قال، ثم أتىٰ باب عثمان، فجاءه البوّاب حتّىٰ أخذ بيده، فأدخله علىٰ عثمان رضي الله عنه، فأجلسه معه على الطنفسة، فقال: حاجتك، فذكر حاجته وقضاها له، ثم قال له: ما ذكرت حاجتك حتّىٰ كانت الساعة، وقال: ما كانت لك من حاجة فاذكرها، ثم إنّ الرجل خرج من عنده فلقي ابن حنيف فقال له: جزاك الله خيراً، ما كان ينظر في حاجتي ولايلتفت إليّ، كلّمته فيَّ؟ فقال ابن حنيف: والله ما كلّمته، ولكن شهدت رسول الله ﷺ وأتاه ضرير فشكا إليه ذهاب

---

١. زيارة القبور: ١٠٠، نقلاً عن كشف الارتياب: ٢٥٢.

بصره، فقال له النبي ﷺ: *«إن شئت دعوت أو تصبر»* فقال: يارسول الله، إنّه ليس لي قائد وقد شقّ عليَّ، فقال له النبي ﷺ: *«ائت الميضأة فتوضأ، ثم صلّ ركعتين، ثم ادع بهذه الدعوات...»* قال ابن حنيف: فوالله ما تفرّقنا، وطال بنا الحديث حتىٰ دخل علينا الرجل كأنّه لم يكن به ضرّ قطّ. ورواه البيهقي من طريقين بنحوه[1و2].

فتعكس هذه القصة التوسّل برسول الله ﷺ بعد وفاته وفقاً لما أمر به ابن حنيف، وتمثّل أيضاً وثيقة أخرىٰ لما روي عن ابن حنيف في حياة النبي ﷺ.

٢ ـ كنّا قد ذكرنا في الحديث الثاني من أحاديث التوسّل برسول الله ﷺ في حياته أنّه قال في دعائه لفاطمة بنت أسد:

«... ووسّع عليها مدخلها بحقّ نبيك والأنبياء الذين من قبلي»[3].

فقد سأل النبي ﷺ الله في هذا الدعاء بحقّ الأنبياء الماضين، ممّا يمثّل مصداقاً للتوسّل بالأموات؛ إذ دعا الله بحقّ الأنبياء من قبله، وهم جميعاً من الأموات.

٣ ـ وفي الحديث الثالث من تلك الأحاديث في الدعاء الذي علّمه النبي ﷺ لأبي بكر، دعا الله بإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ عليهم السلام، والثلاثة كانوا أمواتاً إذ ذاك؛ وبناءً عليه فإنّ دعاء الله بحقّ الأموات من الأنبياء

---

١. وفاء الوفا ٤: ١٣٧٣.

٢. المعجم الكبير ٩: ٣٠، رقم ٨٣١١.

٣. كشف الارتياب: ٢٦٥، وفاء الوفا ٤: ١٣٧٣.

والتوسّل إليه بهم جائز؛ طبقاً لهذه الرواية[١].

٤ ـ وفي الرواية الرابعة التي ذكر فيها ابن عباس دعاءً لحفظ القرآن، قال: اكتب: ***«وأسألك بمحمد نبيّك، وإبراهيم خليلك، وبموسىٰ نجيّك، وعيسىٰ روحك وكليمك»***[٢].

ففي هذا الدعاء أيضاً تمّ التوسّل إلى الله تعالىٰ بإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ، وقد كانوا جميعاً وقتئذٍ من الأموات.

٥ ـ قال السمهودي: روىٰ أبو الجوزاء قال: قحط أهل المدينة قحطاً شديداً، فشكوا إلىٰ عائشة رضي الله تعالىٰ عنها، فقالت: فانظروا إلىٰ قبر النبي ﷺ، فاجعلوا بينه كوةً إلى السماء حتّىٰ لايكون بينه وبين السماء سقف، ففعلوا، فمطروا...[٣].

إنّ هذا نوع من التوسّل العملي بقبر النبي ﷺ بعد وفاته كما هو واضح.

وقال في «وفاء الوفا» أيضاً: كانت سنّة أهل المدينة آنذاك أن يفتحوا الباب المقابلة لوجهه الكريم من جهة الحرم المحيط بحجرته المباركة، فيجتمع الناس هناك. ولايخفى أنّ ذلك يرتبط بزمن السمهودي.

٦ ـ يروي القسطلاني: وقف أعرابي علىٰ قبره الشريف ﷺ وقال:

---

١. التوصّل إلىٰ حقيقة التوسّل: ٣١٠.

٢. المصدر السابق.

٣. وفاء الوفا ٤: ١٣٧٤.

اللّهم إنّك أمرت بعتق العبيد، وهذا حبيبك وأنا عبدك، فاعتقني من النار علىٰ قبر حبيبك، فهتف به هاتف: ***«ياهذا تسأل العتق لك وحدك! هلّا سألت العتق لجميع الخلق، إذهب فقد اعتقناك من النار»*** ثم ذكر القسطلاني بيتين من الشعر اشتهرا على الألسنة:

إنّ الملوك إذا شابت عبيدهم
في رقّهم أعتقوهم عتق أحرار
وأنت ياسيدي أولىٰ بذا كرماً
قد شبت في الرقّ فاعتقني من النار[1]

٧ ـ وأخرج القسطلاني أيضاً عن الحسن البصري أنّه قال: وقف حاتم الأصمّ علىٰ قبره ﷺ فقال: ياربِّ إنّا زرنا قبر نبيك فلا تردّنا خائبين، فنودي: ***«ياهذا، ما أذنّا لك في زيارة قبر حبيبنا إلّا وقد قبلناك، فارجع أنت ومن معك من الزوّار مغفوراً لكم»***[2].

وهاتان القصتان من موارد التوسّل برسول الله ﷺ بعد موته، وكلاهما يرتبطان بالعتق من العذاب الإلهي وعدم الحرمان من عفوه وغفرانه تعالىٰ، وهما من النوع الثاني من التوسّل الذي يكون المخاطب فيه هو الله سبحانه، ويجعل النبي ﷺ واسطة وشفيعاً، لا من النوع الأول الذي يوجّه الطلب فيه إلىٰ شخص النبي ﷺ.

٨ ـ ورد في «خلاصة الكلام» عن «الجوهر المنظم»: أنّ أعرابياً

---

١. المواهب اللدنية ٤: ٥٨٤.

٢. المصدر السابق.

وقف عند قبر النبي ﷺ وقال: اللّهم إنّ هذا حبيبك وأنا عبدك والشيطان عدوّك، فإن غفرت لي سرّ حبيبك وفاز عبدك وغضب عدوّك، وإن لم تغفر لي غضب حبيبك ورضي عدوّك، وهلك عبدك، وأنت ياربِّ أكرم من أن تغضب حبيبك وترضي عدوّك وتهلك عبدك. اللّهم إنّ العرب إذا مات فيهم سيّد أعتقوا علىٰ قبره، وأنّ هذا سيّد العالمين فاعتقني علىٰ قبره يا أرحم الراحمين، فقال له بعض الحاضرين: يا أخا العرب، إنّ الله قد غفر لك بحسن هذا السؤال[١].

٩ ـ عن محمد بن عبيدالله بن عمرو العتبي قال: كنت جالساً عند قبر رسول الله ﷺ فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يارسول الله ـ وفي رواية: ياخير الرسل ـ إنّ الله أنزل عليك كتاباً صادقاً قال فيه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً﴾ وقد جئتك مستغفراً ربّك عزّ وجلّ من ذنوبي، ثم بكىٰ وأنشأ يقول:

ياخير من دفنت بالقاع أعظمه
فطاب من طيبهنّ القاع والأكم
نفسي الفداء لقبرٍ أنت ساكنه
فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم استغفر وانصرف، فغلبتني عيناي فرأيت النبي ﷺ في المنام

١. كشف الارتياب: ٢٥٨.

فقال: *يا عتبي، إلحق الأعرابي فبشّره أنّ الله غفر له*، فخرجت خلفه فلم أجده. وذكر حكاية الأعرابي هذه السمهودي في «وفاء الوفا»[١].

ففي هذه الحكاية كان المخاطَب هو الله، وجعل المخاطب النبي ﷺ شفيعاً له في الاستغفار.

قال السمهودي في ذلك: وهي مشهورة، حكاها المصنّفون في المناسك من جميع المذاهب، واستحسنوها، ورأوها من أدب الزائر، وذكرها ابن عساكر في تاريخه وابن الجوزي في مثير الغرام الساكن وغيرهما بأسانيدهم إلىٰ محمد بن حرب الهلالي[٢].

١٠ ـ ومن جملة أنواع التوسّل بالنبي ﷺ بعد وفاته أشعار صفيّة بنت عبدالمطلب عمة النبي ﷺ التي نظمتها في رثائه، فقالت:

ألا يارسول الله كنت رجاءنا
وكنت بنا برّاً ولم تك جافياً
وكان بنا برّاً رحيماً نبيّنا
ليبكِ عليك اليوم من كان باكياً

ففي هذه الأبيات الشعرية التي نظمت وأنشدت بمرأىٰ ومسمع من الصحابة، والمخاطَب فيها هو النبي ﷺ، تدلّ عبارة «كنت رجاءنا» علىٰ أنّه كان بعد وفاته رجاءً للمسلمين في الاستغاثة والتوسّل، أي:

---

١. كشف الارتياب: ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

٢. وفاء الوفا ٤: ١٣٦١.

كنت رجاءنا في الشفاعة والإعانة، وكنت وسيلتنا إلى الله جلّ وعلا، وهذا هو معنىٰ كونه رجاءً بعد موته[1].

١١ ـ روىٰ البيهقي وابن أبي شيبة: أنّ الناس أصابهم قحط في خلافة عمر، فجاء بلال بن الحرث ـ وكان من أصحاب النبي ﷺ ـ إلىٰ قبر النبي ﷺ وقال: ***«يارسول الله، إستسقِ لأُمتك فإنّهم قد هلكوا»*** فأتاه رسول الله في المنام وأخبره بأنّهم سيُسقون[2].

ففي هذه القصة خاطب بلال النبي ﷺ بعد وفاته وطلب منه الاستسقاء، فتوسّل به بعد موته. فإن كان هذا العمل بدعةً ومنكراً لما أقدم على القيام به صحابي جليل بمحضر أصحاب رسول الله والمسلمين عامةً.

يقول زيني دحلان بعد ذكر هذه الرواية: من تتبّع أدعية وأذكار القدماء يجد موارد كثيرة من هذا القبيل، ولم ينكرها أحد[3].

ونقل السمهودي هذه الرواية عن البيهقي من طريق الأعمش عن أبي صالح عن مالك الدار، وقال: ورواه ابن أبي شيبة بسندٍ صحيح عن مالك الدار.

ثم قال: ومحلّ الاستشهاد طلب الاستسقاء منه ﷺ وهو في

---

١. انظر: مجمع الزوائد ٩: ٣٩، المذهب الوهابي: ١٧٢ ـ ١٧٣ نقلاً عن ذخائر العقبىٰ في مناقب ذوي القربىٰ: ٢٥٢.

٢. الدرر السنيّة ١: ٩.

٣. المصدر السابق: ٣١.

البرزخ، ودعاؤه لربّه في هذه الحالة غير ممتنع، وعلمه بسؤال من يسأله قد ورد، فلا مانع من سؤال الاستسقاء وغيره منه كما كان في الدنيا[١].

١٢ ـ جاء في «المواهب اللدنية» قال ابن أبي فديك، وهو من أتباع التابعين، ومن الائمة الثقات المشهورين، ومن المروي عنهم في الصحيحين وغيرهما: سمعت بعض من أدركت من العلماء والصلحاء يقول: بلغنا أنّ من وقف عند قبر النبي ﷺ فقال هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ وقال: صلّى الله عليك يامحمد، حتّىٰ يقولها سبعين مرّة، ناداه ملك: صلّى الله عليك يافلان، ولم تسقط له حاجة. قال صاحب «كشف الارتياب»: وهذا الذي نقله في المواهب عن ابن أبي فديك رواه عنه البيهقي[٢].

إنّ هذا طلباً للحاجة من النبي ﷺ وتوسّلاً به بعد وفاته من جهة، وخطاباً له بعد موته من جهة أخرىٰ، ممّا يدلّ على الارتباط به بعد وفاته كما كان أثناء حياته.

١٣ ـ وقال في «خلاصة الكلام»: وممّا ذكره العلماء في آداب الزيارة: أنّه يستحبّ أن يجدّد الزائر التوبة في ذلك الموقف الشريف، ويستشفع به ﷺ إلىٰ ربّه عزّ وجلّ في قبولها، ويكثر الاستشفاع

---

١. وفاء الوفا ٤: ١٣٧٤.

٢. كشف الارتياب: ٢٥٨.

والتضرّع بعد تلاوة: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ﴾[1] ويقولون: نحن وفدك يارسول الله وزوّارك، جئناك لقضاء حقّك، والتبرّك بزيارتك، والاستشفاع بك ممّا أثقل ظهورنا، فليس لنا يارسول الله شفيع غيرك نؤمّله، ولا رجاء غير بابك نصله، فاستغفر لنا واشفع لنا عند ربّك،واسأله أن يمنّ علينا بسائر طلباتنا[2].

إنّ مضمون هذا الدعاء هو طلب الحوائج الدنيوية والأُخروية من النبي ﷺ، والتوسّل به بعد وفاته، وقد صرّح العلماء باستحباب ذلك كما تقدّم.

(و) التوسّل بالملائكة

ذكر صاحب كتاب «خلاصة الكلام» عن النووي في كتابه «الأذكار»: أنّ النبي ﷺ أمر أن يقول المصلّي بعد أداء صلاة الصبح ثلاث مرّات:

«اللّهم ربّ جبرئيل وميكائيل وإسرافيل ومحمد ﷺ أجرني من النار».

قال النووي في شرحه: إنّما ذكر هؤلاء للتوسّل بهم في قبول الدعاء، وإلّا فهو ربّ جميع المخلوقات[3].

---

١. النساء: ٦٤.

٢. كشف الارتياب: ٢٥٨.

٣. نقلاً عن زيني دحلان، الدرر السنيّة ١: ٣٠، الشيخ نصيب التوصّل إلىٰ حقيقة التوسّل: ٣٠٦.

هذا وقد صحّح الحاكم الحديث المذكور، وعدّه ابن حجر حديثاً حسناً.

(ز) التوسّل بالصالحين

١ ـ رویٰ أبو سعيد الخدري: أنّ رسول الله ﷺ قال:

«من خرج من بيته إلى الصلاة فليقل: اللّهم إنّي أسألك بحقّ السائلين عليك، وبحقّ ممشاي هذا...»[1].

حيث مرّ ذكره في التوسّل بالأعمال الصالحة.

وكما ذكرنا فإنّ هذا الدعاء توسّل بالصالحين؛ إذ إنّ جملة: «بحقّ السائلين عليك» دالّة علىٰ ذلك؛ لأنّ السائلين هم عباد الله الصالحين، وتوسّل بالعمل الصالح أيضاً. فليس المراد من حقّ عباد الله الصالحين حقّاً ذاتياً وملزماً لله تبارك وتعالىٰ؛ لعدم وجود إنسان يمتلك مثل هذا الحقّ على الله، بل المراد الحقّ الذي منحهم الله إيّاه وجعلهم أصحاب حقّ، نظير قوله في المؤمنين: ﴿وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا هو الجاه والمنزلة التي منحها الله لعباده الصالحين.

٢ ـ توسّل عمر بن الخطاب بالعباس عم النبي ﷺ، فجاء في كتب التاريخ: لمّا استسقىٰ عمر بالعباس عم النبي ﷺ قال: ***أيها الناس، كان النبي يرىٰ للعباس ما يرى الولد للوالد، فاقتدوا به واتّخذوه وسيلة إلى الله عزّ وجلّ»*** وهذا من جملة موارد التوسّل بالصالحين، وقد

---

١. سنن ابن ماجة ١: ٢٥٦.

أشرنا إلىٰ عددٍ منها في البحوث السابقة.

قال ابن تيمية: وفي الصحيحين: أنّ عمر بن الخطاب استسقىٰ بالعباس، فدعا فقال: ***اللّهم إنّا كنّا إذا أجدبنا نتوسّل بنبيّنا فتسقنا، وإنّا نتوسّل إليك بعم نبيّنا فاسقنا***، فسقوا[1].

سيرة وأقوال العلماء

١ ـ ذكر ابن حجر في «**الصواعق المحرقة**»: أنّ الإمام الشافعي كان يتوسّل بأهل بيت النبي ﷺ ويقول:

آل النبي ذريعتي ... وهم إليه وسيلتي

أرجو بهم أُعطىٰ غداً ... بيدي اليمين صحيفتي[2]

وبناءً علىٰ هذا، فإنّ الإمام الشافعي وغيره من علماء الحنبلية والحنفية والمالكية ذهبوا إلىٰ صحّة التوسّل بالنبي ﷺ بعد وفاته.

وجاء في «**خلاصة الكلام**»: المرجَّح عند الحنابلة جواز التوسّل بالنبي ﷺ بعد موته، لصحّة الأحاديث الدالّة علىٰ ذلك... وقد بسط الإمام السبكي نصوص المذاهب الأربعة في استحباب التوسّل في كتابه «**شفاء الأسقام في زيارة خير الأنام**»[3].

٢ ـ وفي «**خلاصة الكلام**» و«**الدرر السنّية**» كلاهما لأحمد بن

---

١. زيار القبور: ١٥٥ نقلاً عن كشف الارتياب.

٢. كشف الارتياب: ٢٥٧.

٣. نقلاً عن المصدر السابق.

زيني دحلان: قال العلّامة ابن حجر في كتابه «**الخيرات الحسان في مناقب الإمام أبي حنيفة النعمان**» في الفصل الخامس والعشرين: الإمام الشافعي أيام هو ببغداد كان يتوسّل بالإمام أبي حنيفة يجيء إلىٰ ضريحه يزور فيسلّم عليه، ثم يتوسّل إلى الله تعالىٰ به في قضاء حاجاته. قال: وقد ثبت أنّ الإمام أحمد توسّل بالإمام الشافعي حتّىٰ تعجّب ابنه عبدالله ابن الإمام أحمد، فقال له أبوه: إنّ الشافعي كالشمس للناس، وكالعافية للبدن[1].

٣ ـ وقال زيني دحلان: ولمّا بلغ الإمام الشافعي أنّ أهل المغرب يتوسّلون إلىٰ الله بالإمام مالك لم ينكر عليهم[2].

٤ ـ قال صاحب كتاب «**الغدير**»: قال القسطلاني في «**المواهب اللدنية**» وينبغي للزائر له ﷺ أن يكثر من الدعاء والتضرّع والاستغاثة والتشفّع والتوسّل به ﷺ، فجدير بمن استشفع به أن يشفّعه الله فيه. قال: وإنّ الاستغاثة هي طلب الغوث، فالمستغيث يطلب من المستغاث به إغاثته أن يحصل له الغوث، فلا فرق بين أن يعبّر بلفظ الاستغاثة أو التوسّل أو التشفّع أو التوجّه أو التجوّه؛ لأنّهما من الجاه والوجاهة، ومعناهما علو القدر والمنزلة، وقد يتوسّل بصاحب الجاه إلىٰ من هو أعلىٰ منه.

قال: ثم إنّ كلّاً من الاستغاثة والتوسّل والتشفّع والتوجّه بالنبي ﷺ

---

١. كشف الارتياب: ٢٥٦ ـ ٢٥٧.

٢. المصدر السابق: ٢٥٧.

كما ذكره في [تحقيق النصرة ومصباح الظلام] واقع في كلّ حال، قبل خلقه وبعد خلقه، في مدّة حياته في الدنيا وبعد موته في البرزخ، وبعد البعث في عرصات القيامة، ثم فصل ما وقع من التوسّل والاستشفاع به ﷺ في الحالات المذكورة[١].

٥ ـ قال الزرقاني في «شرح المواهب»: ونحو هذا في منسك العلّامة خليل، وزاد: وليتوسّل به ﷺ ويسأل الله تعالىٰ بجاهه في التوسّل به، إذ هو محطّ جبال الأوزار وأثقال الذنوب؛ لأنّ بركة شفاعته وعظمها عند ربّه لايتعاظمها ذنب، ومن اعتقد خلاف ذلك فهو المحروم الذي طمس الله بصيرته وأضلّ سريرته، ألم يسمع قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ﴾. قال: ولعلّ مراده التعريض بابن تيمية[٢].

٦ ـ قال العلّامة الأميني: هناك جماعة من الحفّاظ وأعلام أهل السنّة بسطوا القول في التوسّل، وقالوا: إنّ التوسّل بالنبي ﷺ جائز في كلّ حال، قبل خلقه وبعده، في مدّة حياته في الدنيا، وبعد موته في مدّة البرزخ، وبعد البعث في عرصات القيامة والجنّة، وجعلوه علىٰ ثلاثة أنواع:

(أ) طلب الحاجة من الله تعالىٰ به أو بجاهه أو لبركته، فقالوا: إنّ التوسّل بهذا المعنىٰ جائز في جميع الأحوال المذكورة.

---

١. الغدير ٥: ١٤٤.

٢. المصدر السابق.

(ب) التوسّل به بمعنىٰ طلب الدعاء منه، وحكموا بأنّ ذلك جائز في الأحوال كلّها.

(ج) الطلب من النبي ﷺ ذلك الأمر المقصود، بمعنىٰ أنّه ﷺ قادر على التسبّب فيه بسؤاله ربّه وشفاعته إليه، فيعود إلى النوع الثاني في المعنىٰ، غير أنّ العبارة مختلفة، وعدّوا منه قول القائل للنبي ﷺ: أسألك مرافقتك في الجنّة، وقول عثمان بن أبي العاص: شكوت إلى النبي ﷺ سوء حفظي للقرآن، فقال: «ادنُ منّي ياعثمان» ثم وضع يده علىٰ صدري وقال: «أُخرج ياشيطان من صدر عثمان» فما سمعت بعد ذلك شيئاً إلّا حفظت.

قال السبكي في «شفاء السقام»: والآثار في ذلك كثيرة أيضاً (إلىٰ أن قال:) فلا عليك في تسميته توسّلاً أو تشفّعاً أو استغاثةً أو تجوّهاً أو توجّهاً؛ لأنّ المعنىٰ في جميع ذلك سواء.

وقال الأميني ﵀: لايسعنا إيقاف الباحث علىٰ جلّ ما وقفنا عليه من كلمات ضافية لأعلام المذاهب الأربعة في المناسك وغيرها حول التوسّل بالنبي الأقدس ﷺ، ولو ذكرناها برمّتها لتأتّىٰ كتاباً حافلاً، وقد بسط القول فيه جمعٌ لايستهان بعدّتهم، منهم:

١ ـ الحافظ ابن الجوزي المتوفّىٰ ٥٩٧هـ في كتاب «الوفا في فضائل المصطفىٰ» جعل فيه بابين في المقام: باب التوسّل بالنبي ﷺ، وباب الاستشفاء بقبره.

٢ ـ شمس الدين أبو عبدالله محمد بن النعمان المالكي المتوفّىٰ

٦٧٣هـ في كتابه «مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام» قال الخالدي في «صلح الاخوان»: هو كتاب نفيس نحو عشرين كراساً، وينقل عنه كثيراً السيد نور الدين السمهودي في «وفاء الوفا» في الجزء الثاني، في باب التوسّل بالنبي ﷺ الطاهر.

٣ـابن داود المالكي الشاذلي، ذكر في كتابه «البيان والاختصار» شيئاً كثيراً ممّا وقع للعلماء والصلحاء من الشدائد فالتجأوا إلى النبي ﷺ فحصل لهم الفرج.

٤ ـ تقي الدين السبكي المتوفّىٰ ٧٥٦هـ[1].

٥ ـ السيد نور الدين السمهودي المتوفّىٰ ٩١١هـ[2].

٦ـ الحافظ أبو العباس القسطلاني المتوفّىٰ ٩٢٣هـ[3].

٧ ـ أبو عبدالله الزرقاني المصري المالكي المتوفّىٰ ١٢٢٢هـ[4].

٨ ـ الخالدي البغدادي المتوفّىٰ ١٢٩٩هـ في «صلح الاخوان»، وهو أحسن ما أُلِّف في الموضوع، فقد جمع شوارده في سبعين صحيفة، وأفرد فيه رسالةً ردّاً علىٰ كلمة السيد محمود الآلوسي في التوسّل بالنبي ﷺ، طُبعت في عشرين صحيفة بمطبعة نخبة الأخبار سنة ١٣٠٦هـ.

---

١. شفاء السقام: ١٢٠ ـ ١٣٣.

٢. وفاء الوفا ٤: ١٣٧١ ـ ١٣٨٨.

٣. شرح المواهب ٨: ٣١٧.

٤. المصدر السابق.

٩ـ العدوي الحمزاوي المتوفّى ١٣٠٣هـ[١].

١٠ـ العزامي الشافعي القضاعي في «فرقان القرآن» المطبوع مع «الأسماء والصفات» للبيهقي في ١٤٠ صحيفة، وهو كتاب قيّم أدّى للكلام حقّه[٢].

---

١. كنز المطالب: ١٩٨.

٢. الغدير ٥: ١٤٥ ـ ١٤٦.

فهرس المصادر

(١) **التاج الجامع للأُصول في أحاديث الرسول**: الشيخ منصور علي ناصف، دار الكتب العربية، بيروت.

(٢) **التوصّل إلىٰ حقيقة التوسّل**: الشيخ نصيب، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٢هـ.ق.

(٣) **الدرر السنيّة في الردّ على الوهابية**: أحمد زيني دحلان، مكتبة ايشيق، اسطنبول.

(٤) **السيرة النبوية**: ابن هشام، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٥) **الغدير**: عبدالحسين الأميني، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٨٧هـ.ق.

(٦) **المذهب الوهابي (فارسي)**: جعفر السبحاني، مكتب النشر الإسلامي، قم، ٢٠٠١م.

(٧) **المستدرك على الصحيحين**: الحاكم النيسابوري، دار المعرفة، بيروت، ١٤١٢هـ.ق.

(٨) **تفسير ابن كثير**: ابن كثير، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ.ق.

(٩) **تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)**: محمد بن أحمد القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(١٠) **دلائل النبوة**: أحمد بن عبدالله الإصبهاني، عالم الكتب، ١٤٠٩هـ.ق.

(١١) **ردّ المحتار على الدرّ المختار**: ابن عابدين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٧هـ.ق.

(١٢) **سبل الهدى والرشاد**: محمد بن يوسف الصالحي الشامي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٤هـ.ق.

(١٣) **شرح المواهب**: الزرقاني، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٣هـ.ق.

(١٤) **شرح نهج البلاغة**: ابن أبي الحديد، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٨٥هـ.ق.

(١٥) **صحيح البخاري**: إسماعيل بن محمد البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ.ق.

(١٦) **كنز العمّال**: المتقي الهندي، مؤسسة الرسالة، بيروت: ١٣٩٩هـ.ق.

(١٧) **مجمع البيان**: الفضل بن الحسن الطبرسي، طهران، ١٣٩٥هـ.ق.

(١٨) **وفاء الوفا**: السمهودي، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠١هـ.ق.

فهرس الموضوعات

الفصل الرابع

التوسّل بالأنبياء عليهم السلام وأولياء الله



مطلوب أم ممنوع؟

لم تكن مسألة الدعاء والتوسّل من المواضيع الجديدة والطارئة على الإنسان، بل هي قديمة بقدمه على سطح هذا الكوكب، فما إن تحيط به الدواهي من كوارث طبيعية أو حروب طاحنة، لاذ بالدعاء والتوسّل إلى الله سبحانه وتعالى، أو إلى من يعتقد بصلاحه، لاجئاً إليه، مستغيثاً به، فيطلب إليه حاجته، وبهذه النظرة تكون المسألة مركوزةً في ضمير الإنسان وفطرته، وليس ثمّة حرج ولا معارضة لمنطق العقل والإيمان، وقد مارسها الإنسان في كلّ مراحله، ولم تقتصر عليها طائفة دون أُخرى أو أُمّة بمعزل عن غيرها.

والأمر نفسه يجري في مسألة التوسّل إلى الله سبحانه بالأنبياء والأولياء في حال حياتهم ومماتهم طالما يصبّ في إطار ما أمر الله به، ولم ينه عنه؛ إذ يعدّ امتداداً للتوسّل إليه سبحانه.

وهذا الكتاب يكشف عن معنى التوسّل وطلب الحاجة إلى الله سبحانه وتعالى بأوليائه، ويثبت بالأدلّة الشرعية المعتبرة عند الجميع صحّة هذا العمل، بل استحبابه، وأن ليس ثمّة حرمة ولا كراهة فيه.

الناشر




ISBN: 978-964-167-107-9

﴿ المكتبة التخصصية للرد على الوهابية ﴾